KONRAD ADENAUER STIFTUNG

إشراف
ليليا عثمان الشلوقي
بالاشتراك مع
راضية مشكان، حليمة ونادة وحميدة الطرابلسي باشا

تجارب الهجرة ومسارات شخصية للكفاءات التونسية

تمهيد : سهام النجّار

KONRAD ADENAUER STIFTUNG

إشراف
ليليا عثمان الشلوقي

بالاشتراك مع
راضية مشكان، حليمة ونادة وحميدة الطرابلسي باشا

تجارب الهجرة ومسارات شخصية للكفاءات التونسية

تمهيد : سهام النجّار

2019

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات تتبنّاها جمعيّة تونس الفتاة أو مؤسسة كونراد أديناور.

الفهرس

تصدير 7
حمزة عمر

تمهيد 9
سهام النجّار

تقديم 13
ليليا عثمان الشلّوقي

هجرة تطوير الذات : بين الرغبة في التحرّر والتشبث بالجذور 23
أسماء الإحيول

وجودٌ قدره الهجرة. . . الأطباء التونسيون ورحلة الهجرة إلى ألمانيا ... 41
سوسن فري

الكفاءات التونسية المتخصصة بين الموجود والمنشود 63
صبرين الجلاصي

ثقافة التميّز وإعادة إنتاج النجاح بالمهجر 77
بلال المزوغي

طموح مهاجرة 89
نهلة عكريمي

الكفاءات التونسية بين الهجرة والعودة المشروطة 101
نعيمة الفقيه

هجرة الكفاءات شبه الطبية من المستشفيات العمومية 117
رياض بشير

شكـر

هذا الكتاب هو ثمرة أشغال مشروع بحثي حول هجرة الكفاءات بتونس، انتظم بالاشتراك بين جمعية "تونس الفتاة" ومنظمة "كونراد أديناور" في الفترة الممتدة بين 2019-2020. مرّ هذا المشروع بثلاث محطات كبرى، تمثلت الأولى في ورشة منهجية تم خلالها ضبط الإطار المنهجي الذي سيلتزم به الباحثون أثناء إجراء المقابلات الكيفية. وتتمثل المحطة الثانية في ورشة كتابة مكثفة تمت خلالها معالجة المادة المجمعة وتحويلها إلى نصوص علمية قابلة للنشر. أما المحطة الثالثة فتتمثل في مجموع التعديلات التي أدخلت تباعا على النصوص من خلال الاشتغال على كل نص على حدة من قبل المؤطرين والمنسقة العلمية للمشروع. حيث تم تقسيم الباحثين إلى أربع مجموعات عمل ولكل مجموعة مؤطر يشرف على سير العمل في مجموعته ويوجه الباحثين.

ولا يسعنا إلا أن نعبر باسم الهيئة المديرة وكافة الأعضاء عن عميق امتناننا و تقديرنا للمجهود البالغ الذي قدمته الدكتورة "سهام النجار"، المنسقة العلمية للمشروع، لهذا البحث في كافة مراحله من خلال الضبط والتنسيق والمراجعة والتدقيق، وقد حرصت بجديتها وصرامتها العلمية على الأخذ بيدنا في أول مغامرة بحثية تخوضها الجمعية. كما لا يفوتنا أن نقدم جزيل شكرنا للمشرفة على إصدار هذا العمل الدكتورة "ليليا عثمان شلوقي"، والمؤطرات المشرفات على مجموعات العمل الدكتورة "حليمة ونادة" والدكتورة "حميدة الطرابلسي باشا" والدكتورة "راضية مشكان"، لحرصهن البالغ على جودة النصوص وارتقاءها إلى المستوى العلمي المطلوب وعلى صبرهن على الباحثين ومرافقتهم من خلال حسن التأطير والتوجيه. كما لا يفوتنا أن نوجه التحية للباحثين الشبان لما أثبتوه من جدية والتزام وشغف بالبحث والتكوين و تطوير نصوصهم.

أخيرا لا يفوتنا أن نشكر شركاءنا في منظمة كونراد أديناور، لإيمانهم بهذا المشروع البحثي من خلال الدعم اللوجستي والمادي الذي سمح بإصدار الكتاب. كما نوجه تحية خاصة لمديرة البرامج "لوسيا كريمر" لحسن تعاونها وحرصها على توفير ظروف عمل ملائمة لفريق البحث.

تصديـر

حمزة عمر[1]

هذا الكتاب الجماعي الذي يهتمّ بهجرة الكفاءات في تونس هو ثمرة تجربة جديدة تخوضها جمعيّة تونس الفتاة، رفقة مؤسسة كونراد أديناور، عبر الانخراط في العمل البحثي الأكاديمي.

لطالما حاولت الجمعية، عبر مختلف أنشطتها منذ تأسيسها في 2012، أن تكسر الأفكار النمطية المتعلّقة بالعالم الأكاديمي وطابعه النخبوي فأقامت عددا من الندوات والمحاضرات الّتي أثّثتها نخبة من الأساتذة الجامعيين والباحثين المتخصصين والتي كانت في نفس الوقت مفتوحة للعموم للمشاركة فيها مع تخصيص وقت كاف للنقاش بين المحاضرين والحضور ترسيخا للطابع التفاعلي وتجاوزا لعموديّة العلاقة. كما حرصت الجمعية على إتاحة الفرصة للباحثين الشبّان لاكتساب الثقة في أنفسهم، فجمعت ندوات الجمعية غالبا بين أساتذة من ذوي الخبرة الواسعة في مجالات اختصاصهم وباحثين مازالوا في خطواتهم الأولى في المجال الأكاديمي. ولعلّ هذا المزج بين هذين الصنفين من الباحثين أتاح لأصحاب الخبرة منهم القيام، ولو بشكل غير مباشر، بدورهم التأطيري تجاه الباحثين الشبّان.

غير أنّ الاضطلاع بهذا الدور التأطيري كان يتطلّب مشروعا من طبيعة مختلفة. ذلك أنّنا نلاحظ في مختلف المؤسسات الجامعية ضعفا في أداء الوظيفة البحثية، وحسبنا الإشارة إلى أنّ الميزانية المخصصة للبحث العلمي لم تتجاوز 8% من ميزانية وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في تونس في 2019، كما أنّ النسبة المخصصة للبحث والتنمية لم تتجاوز 0,6% من الناتج الداخلي الخام في تونس في 2016، حسب أرقام البنك الدولي. وتضحي الوضعيّة أكثر صعوبة إذا تعلّق الأمر بالبحث العلمي في مجال العلوم الإنسانية، وهو ما حدا بالدكتور

[1] الرئيس الأول لجمعية تونس الفتاة

فتحي ليسير، أستاذ التاريخ في الجامعة التونسية، إلى القول إنّنا لا نزال نعيش في العصر الحجري في مستوى البحث العلمي.

سعت الجمعية من خلال مشروع هجرة الكفاءات في تونس إلى بذر نواة تقاليد جديدة في البحث العلمي. فهذا المشروع يهدف إلى كسر الحواجز بين الاختصاصات الجامعية وذلك من خلال فسح المجال لباحثين شبّان من مختلف الاختصاصات للكتابة حول نفس الموضوع. وقد تمّ توفير تأطير متميّز للمشاركين في المشروع، وذلك من خلال ورشتين بحثيتين مشفوعتين بعمل معمّق على النصوص، في ميدان قلّ الاشتغال عليه في تونس وهو كتابة البورتريهات العلمية.

نأمل أن تكون هذه الخطوة الأولى ثابتة في طريق جمعيّة تونس الفتاة للمساهمة في إثراء البحث العلمي في تونس. ولا يفوتنا أن نتوجّه بالشكر إلى مؤسسة كونراد أديناور لإيمانها بهذا المشروع والدعم الذي قدّمته إليه، وإلى كلّ الأساتذة المشرفين على التأطير لحرصهم البالغ على الارتقاء بكتابات الباحثين المشاركين في المشروع.

تمهيـــــــد

سهام النجّار[1]

تعدّ مسألة الهجرة بشكل عام وهجرة الكفاءات بشكل خاص مبحثا يشغل الباحثين المنتمين إلى العديد من الاختصاصات وقضية جيو استراتيجية وسياسية واقتصادية هامة. يتمتّع هذا الكتاب بميزة مزدوجة تتمثل في تقديم تجارب كفاءات شبابية مهاجرة من وجهة نظر باحثين شبّان في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية واقتراح منهجية طريفة، لا تحظى باهتمام واسع، تتمثّل في استخدام تقنية البورتري السوسيولوجي.

تمثّل مسألة الهجرة جزءا من التاريخ والذاكرة التي تعود جذورها – الأكثر وضوحا على الأقل – إلى الستينيات من القرن الماضي. وتجدر الإشارة إلى أنّ المعالم والتحديات التي تتعلّق بالهجرة مرتبطة بوضعيات وسياقات مختلفة : سنوات ما بعد الاستقلال، أزمة الدولة القومية في أواخر السبعينيات، وصول الجيل الثاني من المهاجرين الذين فرضوا على الحكومات الأوروبية في الثمانينات وضعًا اجتماعيًا وثقافيًا جديدًا، بروز الإسلام الراديكالي انطلاقا من سنة 2000، وما انجرّ عنه من تمركز أتباعه ومناصريه في ضواحي العواصم الأوروبية والعربية الكبرى وأخيراً "الربيع العربي" والحروب في الشرق الأوسط التي جعلت البحر الأبيض المتوسط مكانًا للاختبار حيث تستمر الهجرة في الكشف عن وجهها الأكثر مأساوية.

شكلت تقنية البورتري السوسيولوجي مدخلا حاول من خلاله كلّ مؤلف تقديم تجارب فردية ناجحة. لا يمثّل كل بورتري مجرّد مسار رتيب بل هو تجربة مركّبة تعكس تاريخا اجتماعيا ثريّا. فهو نتيجة لتجربة حياتية معقدة تتطلّب مواجهة حالات وظروف متناقضة لتشق طريقها نحو التميز والنجاح. ويراوح هذا المسار بين التهميش والتميّز، إرادة تحرير الذات والتعلق بالأصل، الالتزام

[1] أستاذة تعليم عال في علم الاجتماع بمعهد الصحافة وعلوم الاخبار (جامعة منّوبة). المنسّقة العلمية للورشة المنهجية حول هجرة الكفاءات.

وعدم الالتزام، الاستقرار في المجتمع المضيف والعودة إلى البلد الأصل، إلخ. كل شيء يدل على أن كل تجربة هي نتاج لتجارب واختبارات متواصلة.

يدعونا هذا العمل إلى إعادة طرح الأسئلة المتعلّقة بالهجرة مثل تطوير الذات، روح المغامرة، البحث عن الذات، العودة إلى الأصل، ثقافة التميّز، الاعتراف الاجتماعي، قيمة المعرفة، المواطنة البديلة، البحث عن المعنى، إلخ.

فيما يتعلق بتقنية البورتري السوسيولوجي، التي تمثّل جوهر هذا العمل الجماعي، من المهم أن نسأل : إلى أيّ مدى يمكن اعتبار هذه التقنية المعتمدة في هذا الكتاب مهمة لفهم مسألة الهجرة ؟

يقدم لنا هذا العمل جملة من الكفاءات التي تمثّل كل حالة منها، كما أوضح برنارد لاببر (2002)، تجربة ناتجة عن "الطيات" المتعددة للبنية الاجتماعية التي رُسبت فيه. مكّنت إعادة بناء بورتريات هؤلاء المهاجرين الشبان من فهم الظروف الموضوعية، ولكن أيضًا الخصائص الفردية المتأصلة في مشروع الهجرة. وتُظهر الحالات المختلفة التي تمت دراستها أن الهجرة هي تجربة أساسيّة في "مشروع الحياة" الذي يأخذ طابعا فرديًا وعائليا (واجتماعيا). وتمكّننا هذه المنهجية من فهم الأهمية الاجتماعية للحالات الخصوصية، والتي تشير إلى العلاقة الوثيقة بين البعد الفردي والبعد الاجتماعي.

على مستوى آخر، تتيح تقنية البورتري خلق ما يسميه دانيلو مارتوتشيلي وفرانسوا دي سينغلي (2009) "فضاء التفكير التفهّمي" حيث يقوم الباحث بإجراء تحليل من خلال إعادة صياغة السيرة الذاتية للشخص الذي تمت مقابلته. وتندرج هذه المنهجية في إطار المقاربة السوسيو أنثروبولوجية التي تعطي لـ "وجهة نظر الفاعل الاجتماعي" مكانًا بارزا. ولا يقتصر هذا المنهج على مجرد عرض الحقائق والوقائع، بل هو ثمرة عمل تأويلي يقوم على دراسة الواقع الاجتماعي على أساس "البساطة الوصفية" (جان كلود باسرون، 1993).

تم بناء البورتريات المختلفة بعد تأويل المعطيات الميدانية التي تم جمعها باستخدام دليل المقابلة الذي يحتوي على ستة محاور تحيل على فترات مختلفة من مسار الهجرة : الانتماء العائلي والمسار المدرسي، أهداف ودوافع مشروع الهجرة، الاستقرار والاندماج داخل المجتمع المضيف، مفاوضات الهوية

والاعتراف الاجتماعي، تحقيق الذات والمشاريع المستقبلية، التوصيات. تم تصميم هذا التقسيم المحوري، بطريقة جماعية، بشكل يسمح لكل باحث بتحليل خصوصية مشروع الهجرة الذي تمت دراسته بالتركيز على أسسه، والاضطرابات التي تتخلّله، والاستراتيجيات التي تحدّده والاستعدادات الفردية التي تميزه. وبذلك يمثّل هذا الكتاب صورة وقع رسمها بناءً على معالجة مختلف تجارب الهجرة التي وقع تقديمها، ممّا يمكّن من فهم السير الذاتية المختلفة من أجل تحديد المسارات الاجتماعية التي تتضمّنها.

وهكذا نتبيّن أنّ ملامح المهاجر معقدة، حيث تتقاطع معالمه مع المسارات والطموحات والأوهام والأحلام. وما يميّز هذه الملامح أنّها غير قابلة للاختزال ضمن عوامل محددة لسياق واحد، وغير خاضعة لنماذج ثابتة للتحليل السياسي والاجتماعي... ومن هذا المنطلق يهدف هذا الكتاب إلى فهم مختلف تمظهرات تجربة الهجرة، وتناقضاتها، والوعود وخيبات الأمل التي تعترضها. ويتطلّب ذلك الاستماع إلى الفاعل الاجتماعي الذي يقوم بسرد هذه المغامرة بين ضفّتين وثقافتين ومرحلتين للسيرة الذاتية. والجدير بالذّكر أنّ انتظارات الباحث من خلال اختيار هذه المقاربة هو البحث عن موضوع أقل وضوحا ولكن بالتأكيد أكثر دقة. ذهب المؤلفون للبحث بين "طيات الخطاب" ما يمكن أن يتخيله المهاجر كمشروع للحياة، وصورة الذات.

وأخيراً، هناك جانب آخر من التمشّي المنهجي يستحق التأكيد يتمثّل في إظهار مؤلفي هذا الكتاب روحًا إبداعية ومبتكرة في إدارة دليل المقابلة للشباب المعنيين من خلال الاستفادة من وسائل الاتصال الحديثة والمنصّات الرقمية : ميسانجر، هاتف، سكايب، الخ وذلك للتوصّل إلى رسم صور المهاجرين الشبان في فترة زمنية محدودة نسبيًا. تتيح هذه الممارسة البحثية الجديدة للمبحوثين امكانية التعبير عن آرائهم بحرية وتفادي الحرج الناتج عن الاتصال المباشر و"وجهاً لوجه".

وإجمالا تكمن قوة هذه التجربة في تحليل مجال بحث كلاسيكي (تجربة الهجرة)، على الرغم من أنه مازال يعتبر موضوع الساعة، وذلك بتجديد المقاربات واعتماد منهج متفرّد وطريف في مجال العلوم الانسانية والاجتماعية.

تجارب الهجرة والمسارات الشخصية للكفاءات التونسية
تقديـم

ليليا عثمان الشلوقي[1]

تعتبر هجرة الأدمغة أو نزيف الادمغة «le brain drain»، مظهرا من مظاهر الهجرة التي ما فتئت تستدعي جهد الباحثين بالتحليل والتفكير وإنتاج الدراسات. فحركات الهجرة اليوم لم تعد تعنى بقوة السواعد والعضلات، بل أضحت تتعلق بالعقول أو ما اصطلح على تسميته بـ "المادة الرمادية".

تحوّل مسار الهجرة الذي كان مفتوحا في البداية للعلماء المختارين كفئة مستهدفة، إلى براديغم للتنقل يستحضر جميع المواهب. تشهد السوق العالمية تنافسا عاليا ونوعا من السباق المحموم بين الدول والشركات الكبرى وراء الموهوبين وأصحاب الكفاءات بغاية الظفر بهم. غير أن قواعد هذا التنافس لم تحدد بعد. بالإضافة إلى أنّ الشهادات والدرجات العلمية، أضحت هي المهارات والسير المميزة.

إنّ أصحاب الكفاءات هم الأشخاص ذوو المستوى العلمي العالي من باحثين وأساتذة تعليم عال ومهندسين وأطباء... وهم المصنفون، حسب المعايير الدولية، نخبا. ولذلك تُعتَبَر مساهمتهم في إنتاج المعرفة مساهمة ذات قيمة مضافة عالية (Loitron et Cheylan, 2006). أمّا الطلبة، فيصنفون ضمن الموارد البشرية الّتي لها طاقة تساهم في تحقيق التنمية. ويضمّ مفهوم الكفاءة ستة أصناف حسب الترتيب التالي : المدرّسون والباحثون، المهندسون والمعماريون، الأطباء والصيادلة، المختصّون في مجال الإعلامية، المحامون وآخرون. وهم يختارون وجهاتهم في العالم حسب الترتيب التالي : 1 أوروبا، 2 أمريكا الشمالية، 3 البلدان العربية، 4 افريقيا، 5 آسيا (وخاصة اليابان)، 6 أستراليا[2].

---

[1] استاذة جامعية في اختصاص علم النفس بالمعهد الاعلى للعلوم الانسانية بتونس جامعة تونس المنار

[2] Kaies Samet (2014) : fuite des cerveaux en Tunisie Evolution et effets sur l'économie tunisienne Hommes & migrations Revue française de référence sur les dynamiques migratoires 1307 | 2014 L'Afrique qualifiée dans la mondialisation

لقد ظهر مصطلح "نزيف الأدمغة" في الأدبيات حول الهجرة العالمية لأوّل مرّة في إنجلترا لوصف هجرة العلماء الأنجليز الحاصلين على شهادة دكتوراه على الأقل إلى الولايات المتّحدة وكندا (1952-1962) وهو ما كان يمثّل خسارة فادحة لأنجلترا. وقد[3] أثارت مسألة هجرة الأدمغة نقاشا حادا بين المدرسة الماركسية المتشائمة والمدرسة النيوكلاسيكية المتفائلة، وبين الحجج "الأخلاقية" المنشغلة بمسائل اللامساواة والحجج النفعية المتعلّقة بمزايا هذه الهجرة بالنسبة إلى الإنسانية.

لئن ارتفعت هجرة الأشخاص ذوي الكفاءة العالية من البلدان النامية إلى البلدان المتقدّمة منذ عقدين، فإنّ هذه الظاهرة لم تدرس كما ينبغي في بلدان اتحاد المغرب العربي[4]. أمّا بالنّسبة إلى تونس فقد اهتمّت بآثار تطوّر هجرة الأدمغة على الاقتصاد التونسي قبل الثورة وبعدها وبالانتظارات المنجرّة عن هذا الحدث.

هل يتعلّق الأمر بهجرة الأدمغة «brain gain» أو بكسب الأدمغة أي كسبها في حالة العودة إلى البلد الأصلي، أو كذلك هدر الأدمغة «brain waste» أي هدر كفاءات العلماء نتيجة اشتغالهم في مهام دون مستواهم العلمي وبأجور متدنية وعملهم في الاقتصاد اللانظامي، أو بهجرة مرتبطة بنهب للأدمغة «pillage de cerveaux»[5]؟

لا يزعم هذا الكتاب الجماعي حول هجرة الكفاءات الإجابة عن الرّهانات المتعلّقة بهذه المسألة وإيجاد حلول لإشكالياتها في ظلّ هيمنة السوق العالمية

[3] Balmer et al (2008) Anatomy of Brain Drain http://doc.ukdataservice.ac.uk/doc/6099/mrdoc/pd f/6099uguide.pdf Le rapport، d'après l'analyse de Brian Balmer et al. (2008) a été rédigé sur la base d'une enquête statistique auprès des universités du Royaume Uni. Il est établi que Cette enquête proposait un mode de calcul de cette perte en mesurant le nombre de départs en rapport avec les soutenances de doctorat sur dix ans dans les universités anglais. Cette enquête de la Royal Society ne cherchait pas à analyser les motifs de départs de ces migrants. La population ciblée par cette enquête، d'après l'étude des archives de Brian Balmer، est constituée exclusivement des détenteurs de PHD، considérés comme «chercheurs de premier rang» dans cinq disciplines.

[4] Mohamed Saib Musette(2015) «Fuites des Cerveaux ou Mobilité des Compétences au Maghreb» CREAD–OIT.

[5] Pierre Jalée 1966 «*Le pillage du Tiers Monde*» [compte–rendu] Georges Bensaïd Revue Tiers Monde Année 1966 27 pp. 632–633.

للهجرة غير المضبوطة، وانما يسعى هذا الكتاب إلى تسليط الضّوء على كفاءات تونسية مهاجرة نجحت في مسارها وتحليل نظرتهم إلى تجربة الهجرة وتقييمهم لها. ويهدف كذلك إلى معالجة جملة من الشهادات التي تتعلّق بواقعهم المعيش عن طريق الأحكام والتعليقات والتقييمات الذاتية[6] والتّفاصيل التي يحملونها حول السّياق والظّروف الخاصّة بهم.

هذا الكتاب هو حصيلة ورشتي عمل حول تجارب الهجرات في إطار أنشطة جمعية تونس الفتاة ومؤسسة كونراد أديناور.

ينتمي المؤلّفون الذين ساهموا في هذا الكتاب الجماعي إلى اختصاصات مختلفة : كعلم الاجتماع، الأنثروبولوجيا، العلوم السياسية، علوم الإعلام والاتصال. وقد أجرى المؤلّفون مقابلات شبه موجّهة مع مستجوبين يختلفون تماما من حيث السنّ والنوع الاجتماعي ومجالات التدخّل والمدّة التى قضاها كل منهم في الخارج : طالب، جامعي، طبيب، إطارات عليا، مهندسون وفنّان. تمّ استجواب تسعة أشخاص من بينهم ثلاث نساء. وتمّ إجراء هذه الحوارات بشكل فردي، في مدّة تراوحت بين ساعتين ونصف وثلاث ساعات ونصف.

كانت ورشتا العمل فرصة للباحثين الشبّان المنتمين إلى اختصاصات مختلفة في مجال العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة لتبادل تجاربهم في مجال الكتابة العلميّة وأفكارهم حول مسارات الهجرة الخاصة بالمستجوبين الذين قاموا بمحاورتهم.

لهذا الغرض، تمّ اختيار البورتريه السوسيولوجي كشكل كتابة حول الهجرة، استنادا إلى رؤية المهاجرين لمساراتهم الشخصية. والهدف من هذه الكتابة العلميّة الأخذ بعين الاعتبار إعادة بناء الواقع المعيش عن طريق شهادات المستجوبين من ناحية وتأويلها من قبل الباحثين من ناحية ثانية.. وقد مكّنت البورتريهات من :

1. تثمين مقاربة تقوم على تحليل الدوافع والمنعرجات والاضطرابات والتّطلّعات المتعلّقة بالكفاءات التونسية التي اختارت الهجرة.

[6] La référence à l'expérience subjective Pierre Vermersch CNRS، GREX. (paru dans la revue phénomélogique 1997 Alter n° 5).

2. معالجة واقع متفرّد ومركّب قلّما تناوله الفاعلون ذاتهم.

3. المساهمة في نحت رؤية حول واقع خاصّ بفاعلين اجتماعيّين خاضوا تجربة الهجرة.

تمكّن هذه البورتريهات من الوقوف عند خصوصيّة اختيارات مركّبة تتعلّق بدوافع سوسيو اقتصادية وذات علاقة بالاعتراف الاجتماعي، وتعكس هذه البورتريهات القرارات المكلفة للهجرة، إلاّ أنّه لا يمكن فهم هذه الكلفة من وجهة نظر اقتصادية بحتة، فهي تمكّننا من الكشف عن السّلطة الحقيقيّة للشباب المهاجر ومهاراتهم وقدرتهم على الانفتاح على فضاءات أخرى.

لا يمكن اختزال تنقل الكفاءات الشابة في التعارض بين القيود الموضوعية المادية وحريّة انتقال الذوات. ولا ينحصر الانتقال فقط في مسألة الهروب، أوالرّغبة في التّواصل مع الآخر الذي قد يجعلهم في قطيعة مع أنفسهم. هل يمكن رؤية الهجرة من زاوية أخرى ؟ هل ستكون شرطًا لوصول الشباب المهاجر إلى محيط مختلف يلتقي فيه بالآخر وبذاته في نفس الوقت ؟ إن البحث عن الأفضل يتجلّى في زوايا كل بورتريه باعتباره نتيجة لأزمة ثقة وإحساس بالعجز وخيبة الأمل.

يعيش المهاجر ازدواجيّة بين تصوّر مشروع حياة أفضل ورغبة في تحسين الظروف المادية والمعنوية في ظلّ استقطاب البلدان الغربيّة والخليجيّة من جهة والخوف من القطع مع البلد الأم وانصهار الهوية في هوية الآخر من جهة ثانية. هل يعيش المغترب صراعا داخليّا ؟ وهل يشعر بازدواجيّة الانتماء ؟ وهل يظلّ حاملا معه هموم وطنه أم ينشغل بحياته الجديدة في المهجر ؟

نتبيّن من خلال البورتريهات أنّ المهاجرين يعيشون سلسلة من المصاعب والتحديات والنجاحات والتّميّز فيلمسون تدريجيّا تحقّقا لطموحاتهم وأحلامهم التي حملوها معهم من بلدانهم فيولّد ذلك فيهم شعورا بالفخر والاعتزار في كلّ زيارة خاطفة إلى وطنهم ويزدادون رغبة في مواصلة الإقامة في المهجر لإرضاء طموحم اللامحدود.

تبيّن لوسي لامارش[7] أنّ المهاجرين يتميّزون بالخلق والإبداع وأنّهم يغيّرون مسار حياتهم والعالم الذي يحيط بهم. وسنقدّم في ما يلي محورين أساسيّين نعرض فيهما القواسم المشتركة بين مختلف التّجارب التي قدّمها الباحثون الشّبّان.

النجاح في تونس ضامن للنجاح في الخارج

بيّنت بعض التّجارب أنّ اصصدام بعض المستجوبين بعدم توفير البلد الأم الأرضيّة المناسبة لكفاءته وتميّزه في مجاله يدفعه إلى الهجرة إلى بلد يرى أنّه يشجّع على الإبداع والنّجاح.

يمكن تقسيم المستجوبين إلى فئتين : تضمّ الأولى المهاجرين الذين غادروا وطنهم لمتابعة دراستهم بعد البكالوريا أو بعد الحصول على الشهادات الجامعية الأولى وتضمّ الفئة الثّانية المهاجرين الذين هاجروا تاركين مهنهم بعد حصولهم على عقد للعمل في الخارج أملا في حياة مهنيّة أفضل.

انتقل وليد، (قدمه وليد بوسعيدي) بعد حصوله على شهادة البكالوريا عام 2000 وقضاء سنة جامعية في المدرسة العليا للعلوم الاقتصادية والتجارية بتونس، إلى إيكس إن بروفنس. حيث واصل دراسته وحصل على منصب مطور أعمال في البنك التجاري وفاء في أوروبا عام 2008. وهو أول تونسي يدخل هذه المجموعة الأفريقية : "*كانت مسيرتي ناجحة، لقد كنت الأوّل على الدفعة... أدرك أنّي كنت محظوظا لإكمال دراستي بنجاح والعمل في نفس الوقت... إنه إنجاز*".

أمّا ملاك (التي قدمها بلال مزوغي)، وهي مجازة في التنشيط الثقافي، حريصة على الدراسة والتميز، تكوينها كباحثة في جامعة باريس- كريتاي. لقد نجحت بتفوّق كطالبة دكتوراه في العلوم التربية. عند إعداد أطروحتها حول الهجرة كانت تعمل مع السكان المهاجرين في فرنسا مستغلة معرفتها باللغة العربية.

[7] Lucie Lamarche (2015) «Où qu'il se situe sur sa trajectoire، le migrant a des droits، Dossier : Migrations mouvementées، Revue A bâbord، N° 58 – février / mars 2015.

أمّا بالنّسبة إلى أنيس (قدمته أسماء الاحيويل) فقد هاجر إلى فرنسا، بعد إحرازه على الباكالوريا في العلوم التجريبية في عام 2001 وبعد دراسة سنة في علوم الحياة والأرض. عند وصوله إلى لوكسمبورغ، اختار تكوينا في الهندسة الإعلامية وتخصص في تطوير البرمجيات والسلامة المعلوماتية. طوّر حياته المهنية كباحث وحصل على جائزة الاختراع في مجال الإعلامية. في الوقت نفسه، هو رجل أعمال بعث ثلاثة مشاريع بين باريس ولوكسمبورغ.

مجد (قدمته حميدة جريدي)، ممثل شاب هاجر إلى فرنسا، كان تلميذا متميّزا في معهد نموذجي، لكنّه لم يعرف نفس النجاح في دراسته لإعلامية التصرّف. كان حلمه أن يواصل مشواره كفنّان، ومثّلت هجرته إلى فرنسا حلاً. ومكّنه أول دور له في أول فيلم سينمائي من الحصول على جائزة الدب الفضي لأفضل ممثل في برلين، وهو ما سمح له بتمويل دراسته في السينما والمسرح منذ استقراره هناك، وقد مكّنته تجربة الهجرة من التّمثيل في فيلمين على مدى ثلاث سنوات.

أمّا أمين، الطبيب الشاب الذي هاجر إلى ألمانيا (قدّمته سوسن فري) فقد حقّق نجاحًا ملحوظًا في الاختبارات الصّعبة التي تجرى للتّمكّن من التّسجيل في كلية الطب. بعد نجاحه في دراسته في تونس ومسيرته المهنية المبكرة في القطاعين العام والخاص. وقد هاجر لأنّه تاق إلى ظروف أكثر ملاءمة لممارسة مهنته وإلى آفاق أوسع.

وفي ما يتعلّق بنضال (قدّمته صابرين الجلاصي)، مهندس رئيس مصلحة، ومتحصّل على درجة الماجستير المهني في الإعلامية وشهادة أكثر تخصصا، عبر المراسلة، تحصّل على وظيفة في بنك فرنسي بمزايا تتوافق مع كفاءته. ومازال يتلقّى العروض من الشركات حتى اليوم.

ولا يختلف الأمر مع المهاجرين إلى دول الخليج على مستوى التّفوّق والتميّز، ومثال ذلك خالد (قدّمه رياض بشير)، وهو ممرض تلقّى تكوينا إضافيا في غسيل الكلى. سعى إلى اتقان الإنجليزية الطبية وبعد ثلاث محاولات تمكّن من الحصول على عقد في قطر.

أمّا منيرة (قدّمتها نعيمة فقيه) وسندس (قدّمتها نهلة عكرمي) فقد هاجرتا تباعا إلى المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة. هاجرت منيرة، وهي

الحاصلة على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع ولديها سجل حافل كباحثة في مراكز بحوث معروفة، عن طريق التعاون الفنّي إلى المملكة العربية السعودية ولكنها تحاول إلى الانتقال دولة خليجية أخرى، إذ أنّها لم تتأقلم مع عادات حياة المرأة هناك. أمّا سندس، فتخرجت من ميدان الموسيقى، ثم أصبحت تاجرة في مجال النظارات، قبل أن تسافر إلى دول الخليج لخوض أول تجربة كمديرة مبيعات وتجربة ثانية انتقلت معها إلى دولة أخرى في المنطقة حيث تفوقت في موقع مسؤولية مرموق. "*لا أعرف اليأس أو الاستسلام، انا أحقّق طموحاتي وأثبت نفسي بكل تفاؤلي ورغبتي في النجاح*".

هل يشجّع البلدُ المُستقطبُ المهاجرَ على الاستقرار في المهجر نظرا لما يوفّره له من أسباب النّجاح والتّميّز وتحسين الظّروف المادية والمعنوية أم يجعل الحنينُ إلى الأهل والوطن المهاجرَ يتّخذ قرار العودة ؟

التنقل والعودة واللاعودة

إذا كان التنقل في نهاية الدراسة هو تثمين لنجاح أول، فإن قرار الهجرة لأولئك الذين يعملون هو تثمين للقدرات الفعلية.

تميل هذه الكفاءات إلى الهجرة على أمل إثبات الذات في ظروف مناسبة لطموحاتها ومشاريعها. فهؤلاء الشبان يهاجرون حاملين معهم تطلّعات واستراتيجيات لتحقيق أهدافهم في بلد الاستقبال. وهم أشخاص يتميّزون بالذّكاء ممّا يمكّنهم من الابتكار والإبداع أثناء إقامتهم في المهجر، فيستقرّ بعضهم في البلد الذي هاجر إليه، وينتقل البعض الآخر إلى بلدان أخرى بحثا عن آفاق جديدة..

وتبعا إلى ذلك يصبح قرار العودة قرارا يصعب اتّخاذه وتنفيذه لتأقلم المهاجر مع البيئة الجديدة وشعوره بالاستقرار ممّا يجعله يقارن بين وضعه المريح في المهجر وصعوبة التّأقلم من جديد في البلد الأم.

يوضح مثال نضال الرغبة في تطوير مهارات الفرد لمدة سنتين أو ثلاث سنوات في فرنسا ثم البحث عن فرص عمل أخرى في ألمانيا ولم لا في كندا. وكذلك الشّأن بالنّسبة إلى أمين الذي لا حدّ لأحلامه فبعد خمس سنوات من

الاستقرار في ألمانيا، قرّر الانتقال إلى سويسرا ومنها إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة. أمّاملاك ففي بداية إقامتها في فرنسا، كانت قد غادرت بنيّة العودة إلى كليّتها، لكنها في مواجهة الرفض، قرّرت الاستقرار، فهي لن تبدد رأس مالها المهني والمعرفي. اما بالنسبة الى سندس، "فلا مجال للعودة".

فيما يتعلق بالعودة المشروطة نستعرض تجربتي أنيس ومنيرة: بالنسبة الى أنيس، هناك إمكانية للعودة ولكن على المدى الطويل. حاليا الوضع ليس مناسبا للاستثمار، وتبقى أوروبا، هي الوجهة المُثلى. أمّا منيرة، فإن عودتها رهينة تغيير العقلية التونسية. فالامتيازات الحالية في دول الخليج تثنيها عن فكرة العودة وإذا كان هناك مشروع للتنقل، فسيكون الى تونس رغم أنها تفضل الغرب. إنّ أمنيتها هي أن تعيش في بيئة تحترم الحريات.

ونلمس من خلال تجارب الهجرة وجود شكلا مختلفا من العودة يراوح فيه المهاجر بين الإقامة حينا في المهجر وحينا في بلده الأصلي، ومثال ذلك وليد ومجد، إذ يفكّر وليد في العودة، وهو بصدد إنشاء مشروع تعاوني يتضمن إحداث شركة ناشئة فرنسية تونسية بين ضفتي المتوسط. ويعيش مجد بين البلدين مشتغلا على مشاريع فنية.

تحدد هذه المجموعة من البورتريهات حول هجرة الكفاءات مجموعة من المسارات، يحدّدها عاملان يتمثّل الأوّل في الطّموح والتطلّعات والرّغبة في تحقيق حياة أفضل، ويتمثّل الثّاني في الصّعوبات والعراقيل في البلد الأصلي على المستويات الاقتصادية والسياسية والمؤسساتية والإدارية والتنظيمية والاجتماعية . . .

إضافة إلى غياب رؤية واضحة لمستقبل البلاد عند غالبية المستجوبين ممّا يحول دون قرار العودة. فهناك نوع من الفراغ يطمس رؤية المستقبل أو يحجبها، وتزيد تجارب المحيطين بهم من تأكيد هذا الخوف من المستقبل.

تخضع مسألة تنقل هؤلاء الأشخاص المؤهّلين بوضوح للقضايا الاستراتيجية الدولية. ومع ذلك، لا يبدو أن هناك رؤية وطنية شاملة تحكم هذه القضية الحاسمة المتعلقة بالفرار أو الهدر أو كسب الكفاءات. من بين بعض التدابير، يحدد بوبكري

(2007)[8] مبادرة وزارة البحث العلمي والتكنولوجي وتنمية الكفاءات لجلب المغتربين ذوي المهارة العالية[9]. أطلقت الوزارة سلسلة من المبادرات لتعزيز روابط التعاون العلمي والتقني بين منظمات البحث التونسية والباحثين التونسيين المقيمين في الخارج. يشير الواقع الرّاهن إلى أن هجرة الكفاءات لا يمكن إلّا أن تتفاقم. كيف يمكن الحدّ من عدد أولئك الذين لا يستطيعون سوى تطوير آفاق تطلعاتهم ودفعها الى ماوراء الحدود، وذلك لأنّ الهجرة تجعل بعض الدول "فائزة" وأخرى ـ "خاسرة" ؟ لقد حان الوقت الآن بالنسبة الى الدول لتتأهّب كي تفهم أهمية "كسب الأدمغة" وتعمل من أجله وتجعل منه قضيتها.

[8] Cité par Lotfi Slimane et Wafa Khlif، Les compétences tunisiennes à l'étranger : peut–on parler d'une diaspora scientifique ? Competencies abroad : An inquiry into the Tunisian diaspora and scientific contributions to national development، pp. 421–436.

[9] لدى الوزارة المذكورة دليل للكفاءات الجامعية التونسية بالخارج تستعين به الجامعات التونسية لتقديم الدروس. بالإضافة إلى ذلك، يشرف هؤلاء المدرسون على الأطروحات والمذكرات ويتدخلون في مناظرات انتداب الأساتذة الجامعيين وترقيتهم. تسهل هذه الكفاءات الجامعية أيضًا تسجيل الطلاب في الجامعات الأجنبية (Musette، 2006). ومع ذلك، فإن التدخلات لا تزال محتشمة من حيث الأرقام مقارنة بالاحتياجات.

هجرة تطوير الذات :
بين الرغبة في التحرّر والتشبث بالجذور[1]

أسماء الإحيول[2]

المقدمة

يبدو أنّ خيبة الامل التي أصابت التونسيّين بعد تجربة حكومات "الانتقال الديمقراطي" لعبت دورا مهما في ازدياد الرغبة في الهجرة واعتبارها المهرب الوحيد من الوضع الاقتصادي والاجتماعي المتردّي ومن الفساد المتفشي في كلّ المجالات.

فمع حلول سنة 2014 بلغ عدد المهاجرين من تونس قرابة «1325690»[3] مهاجرا. وتعتبر أوروبا الوجهة الأكثر استقطابا اللمهاجرين التونسيين إذ بلغ عدد المهاجرين إليها حسب إحصائيات وزارة الشؤون الاجتماعيّة «1109280»[4] مهاجرا، في، مقابل 216410 مهاجرا الى بقية بلدان العالم وفق المصدر ذاته.

ويصنّف نفس المصدر حوالي «14621»[5] مهاجرا من ذوي الكفاءات، وأغلبهم ف كانت هجرتهم نحو البلدان العربية التي أصبحت تضم حوالي «11178»[6] مهاجرا، تليها أوروبا التي استقبلت حتى سنة 2014 حوالي 1504

---

[1] أنجزت هذه الورقة تحت إشراف الأستاذة راضية مشكان في إطار ورشة الكتابة التي نظّمتها جمعيّة تونس الفتاة بالاشتراك مع منظمة كونراد أديناور خلال شهري جويلية وسبتمبر 2019.

[2] باحثة دكتوراه في علم الاجتماع، تشتغل على موضوع «الثقافات السياسية والانتقال الديمقراطي دراسة حالة ثقافة الأحزاب السياسية في تونس». باحثة متطوّعة بمركز البحوث الاقتصاديّة والاجتماعيّة بتونس.

[3] وزارة الشؤون الاجتماعيّة، *تقرير مكتب الدراسات والتخطيط والبرمجة*، نوفمبر 2014، دليل الإحصائيات الاجتماعيّة 2014، وزارة الشؤون الاجتماعيّة، تونس، ص. 59. http://www.social.gov.tn/fileadmin/user1/doc/annuaire__2014__version__final.pdf

[4] نفس المصدر السابق ص. 58.

[5] نفس المصدر السابق ص. 61.

[6] نفس المصدر السابق ص. 61.

مهاجرا وأغلبهم مختصين من قطاعي التعليم والصحّة. يجوز القول أنّ تونس ضاقت ذرعا بأولئك الذين يحملون روح المغامرة ويبحثون عن فرص لإثبات ذواتهم، فآفاق أحلامهم أوسع من حدودها الجغرافيّة ومن رتابة بيروقراطيتها ومن سياساتها الاقتصاديّة المحبطة. ومع غلاء المعيشة وانهيار المقدرة الشرائية تجاوز المشكل لدى أصحاب الشهائد الجامعيّة وأصحاب الوظائف العليا مجرد البحث عن عمل مناسب أو ترقية وظيفية، إلى البحث عن مستوى عيش يحفظ كرامتهم ويتناسب مع قيمتهم الاجتماعية والعلميّة ويتسع لشساعة أحلامهم. فالدّخل المادي الذي يحصلون عليه في تونس لا يضاهي الجهد الذي يقومون به في عملهم ولا حتى ما بذلوه أثناء دراستهم سابقا. كما أنّ ما يعايشونه من سوء التصرف الإداري، الذي تغلب عليه المحسوبية والوساطة، لا يتماشى مع قدراتهم وقيمتهم العلميّة التي من المفترض أن تكون المقياس الأساسي للنجاح والترقية الوظيفية. كلّ هذا من شأنه أن يحبط عزائمهم ويدفعهم الى البحث عن إطار أنسب لقدراتهم فوجدوا في الهجرة خير ملجإ وأحسن الحلول لتحسين وضعهم.

لكن هذا الوضع لم تعشه المناطق التونسية بنفس الوتيرة ولا بنفس التدرّج الزمني ففي الجنوب الشرقيّ مثلا وفي مدينة جرجيس تحديدا بدا الوضع مختلفا تماما. فالهجرة في جرجيس مترسّخة في الموروث الشعبي للسكّان بل تجدها في أغاني الأعراس وفي أمثالهم الشعبيّة وفي شعرهم التراثي :

« يا فرنسا يا أم الكوارط باله بلادك بعيدة وخدمتك مرارة

الصباح امشي والطيارة هزاته خلى الوحش لأمه وعماته.»[7]

ومنذ أواخر التسعينات ومع ارتفاع عدد المتمدرسين والناجحين في امتحان الباكالوريا صارت الدراسة في أوروبا اتجاها اعتياديا لطالبي العلم. فما بين سنتي 2009 و2014 بلغ عدد المهاجرين من جرجيس حوالي «2869»[8] مهاجرا

[7] سالم لبيض، *مجتمع القبيلة البناء الاجتماعي وتحولاته في تونس دراسة قبيلة عكّارة*، تونس، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، فيفري 2006، ص. 145.

[8] المعهد الوطني للإحصاء، *مدنين من خلال التعداد العام للسكان والسكنى لسنة 2014*، تونس، 2016-04-04، http://www.ins.tn/sites/default/files/publication/pdf/20__MEDNINE.pdf، ص. 100.

من جملة «6818»[9] مهاجرا من ولاية مدنين. ويمثل المهاجرون بهدف الدراسة 7.29%[10] من جملة المهاجرين من جرجيس في حين احتلت الهجرة بهدف العمل اعلى الاحصائيات بنسبة تبلغ ال 86.26%[11] من جملة المهاجرين.

والهجرة في جرجيس ليست مجرّد سعي وراء لقمة عيش أو بحث عن تخصّص دراسيّ نادر، وإنما هي وسيلة للارتقاء في السلم الاجتماعيّ. كما تعتبر أيضا وسيلة لتحقيق الاعتراف الاجتماعيّ، إذ مهما كانت سمات الشخص ومكانته في المجتمع قبل أن يهاجر فإنّه بمجرّد أن يتحصّل على الإقامة في إحدى البلدان الأوروبيّة يجد ترحيبا واحتراما وتُرفع قيمته اجتماعيّا. فالهجرة تنتقل بالفرد من وضعيّة العطوبة الاجتماعية حتى وإن كان منتجا وفاعلا، إلى وضعية التمكين الاجتماعيّ. والعطوبة الاجتماعيّة[12] «تبعا للتعريف السوسيولوجي الإجرائي، تتحدّد (...) كوضع اجتماعيّ وسط : بين الاندماج الخالص في المجتمع من جانب، والانفكاك التّام عنه من جانب آخر، وذلك تبعا لمدى انشداد روابط الفرد الى الأنساق الاجتماعيّة بمختلف ضروبها أو ضعفها.»[13] وهي أيضا وضعٌ «يشكّله انفتاق الروابط الاجتماعيّة من أربع جهات ممكنة وهي الاندماج الاقتصادي... الاندماج العلائقي... الاندماج المدرسي... والعيش في

---

[9] نفس المصدر السابق، ص. 100.

[10] المصدر السابق، ص. 100.

[11] المصدر السابق، ص. 100.

[12] من المتفق عليه أنّ ترجمة مصطلح «vulnérabilité sociale» هي الهشاشة الاجتماعية أو الضعف الاجتماعي، وأعتمد في بعض البحوث ترجمة العطوبة الاجتماعيّة وهو المصطلح الذي اخترت استعماله في هذا المقال لأنّه يعبّر عن ما أريد قوله. فمفهوم الهشاشة الاجتماعية يحمل معاني الضعف المادي والمعنوي، الاقتصادي والاجتماعي. بينما الحالة التي أدرسها ليست في وضعية ضعف أو هشاشة اقتصادية أو صحيّة أو اجتماعيّة... بل هي تملك كلّ أساسيات العيش الكريم بل والمرفّه لكنّها مع ذلك تعيش حالة عطب لا يُصْلَحُ إلاّ بالهجرة فلا تستسيغ عيشها ولا تشعر بقيمة النعمة التي هي فيها لأنّ مقياس النجاح في محيطها هو الهجرة إلى أوروبا.

[13] جهاد الحاج سالم، الشباب الجهادي في دوار هيشر : دراسة إثنوغرافية، 2014 ; academia.edu. https://www.academia.edu/10163576/SalafiJihadi__Youth__in__a__Popular__Tunisian__Quarter__Douar

أنظر أيضا Robert Castel ; «La Dynamique des processus de Marginalisation : de la Vulnérabilité à la Désaffiliation»، in Cahiers de recherche sociologique ; n 22 ; 1994 ; p. 14

حالة إنكار اجتماعي»[14]. ويتعمّق الشعور بهذه العطوبة الاجتماعيّة لدى الشباب المستقرّ في جرجيس كلّما عاد المهاجرون إلى المدينة وظهرت ملامح الرفاهية على معيشتهم.

إذن كيف لشاب أصيل مدينة جرجيس ويدرس مع زملاء أغلبهم مزدوجي الجنسيّة أو يحلمون هم أيضا بالهجرة، ألاّ يفكّر ولو لمرّة واحدة في حياته في الهجرة، خاصّة إذا كان مغامرا وذا أحلام شاسعة الأفق، راغبا في تطوير ذاته، متعطّشا للعلم والمعرفة ويرى في أوروبا منجما من الفرص.

لكن غاب عن اذهانهم ان أوروبا لا تعطي الفرص والحريّة فحسب بل هي أيضا تجعل المهاجر ممزّقا بين ثقافتين، ثقافة الغرب المتحرّر وثقافة الأجداد. فكيف يمكن للهجرة أن تكون سبيلا لتطوير الذّات وفرصة للنّجاح ؟ وإلى أيّ مدى يُسهم التحلّي بروح المغامرة في نجاح تجربة الهجرة ؟ وكيف يجمع المهاجر بين الرغبة في التحرّر والرغبة في العودة إلى الأصل ؟

للإجابة عن هذه الأسئلة قمنا بإجراء مقابلة تفهّميّة معمّقة وهي تقنية « تضفي طابعا رسميّا على التجربة العمليّة من الميدان والتي تنبع من المعرفة الشخصيّة للمستجوب... يشارك الباحث بنشاط في الأسئلة لتحفيز المستجوب...»[15] وما يميز هذه المقابلة التفهميّة عن غيرها هو أولا أنّ "الميدان (في إطارها) لم يعد حجة لإثبات الإشكالية المحددة مسبقا وإنما هو نقطة الانطلاق لهذه الإشكالية."[16] وثانيا أنّ دليل المقابلة فيها مرن جدّا إذ "نادرا ما يطرح الباحث الأسئلة بالترتيب المكتوب مسبقا"[17].

أجرينا هذه المقابلة مع مهاجر تونسيّ ذي 38 سنة على مرحلتين، الأولى كانت مسجّلة عبر الهاتف، والثانية كانت مقابلة مباشرة. ونهدف من خلال هذا المقال إلى التمييز بين دور العطوبة الاجتماعية والتمكين الاجتماعي كمحفّزين موضوعيين خارجين عن إرادة المهاجر، ودور المحفّزات الذاتيّة (روح المغامرة

[14] جهاد الحاج سالم، مصدر سابق.

[15] Jean-Claude Kaufmann، *L'entretien compréhensif*; Paris، Nathan، 1996، p. 17.

[16] *Ibid.*, p. 20.

[17] *Ibid.*, p. 44.

والرغبة في تطوير الذات) في الهجرة. ونودّ أيضا التركيز على التمزّق الهَوِيّاتي[18] الذي يعيشه الفرد بين جذوره وواقعه المتحرّر في أوروبا. وسنحاول من خلال ما يفيدنا به مستجوبنا استشراف علاقة المهاجرين بوطنهم الأم في المستقبل.

1. البحث عن الفرص وتطوير الذات

ما يميّز مهاجرا ما عن آخر هو رؤيته لبلد المهجر ومبتغاه منه، وعلى قدر هذه النظرة تكون النتيجة. فطالب العلم يستغلّ كل ما يُتاح له ليطوّر معارفه، والباحث عن العمل يسعى لجمع المال وتحسين مستواه المعيشيّ فيخرج من العطوبة الاجتماعية في وطنه ليتمكّن من تحسين وضعه ماديّا ومعنويّا. أمّا من كانت له القدرة على إدراك كلّ الفرص فإنّ آفاقه في النجاح ستكون أوسع وسيتمكّن من اقتناص ما تهبه دول المهجر وسيستغلّ كلّ الامتيازات، وحتى القوانين التي تبدو ظاهرياً رادعة فقط فإنّها في الحقيقة تصقل شخصيّات أكثر وعيّا وثباتا وتمكّناً.

1.1. الفرص أمام الجميع ويفوز بها من يسعى إليها

ولد أنيس البالغ من العمر 38 سنة في مدينة جرجيس وهو اليوم مستقر في لوكسمبورغ منذ 17 سنة. فبعد حصوله على شهادة الباكالوريا في تونس هاجر إلى لوكسمبورغ وتحصّل على شهادة في الإعلامية التطبيقيّة من المركز الجامعي بلوكسمبورغ، وهي تعادل شهادة الهندسة في فرنسا. كما تحصّل على الماجستير المهني في إعلامية الحماية، أي كل ما يهتم بتحويل المعلومات وتشفيرها. واليوم هو مساهم في شركة مختصة في صياغة برمجيّات الحماية ولديه شركات خاصة في مجالات أخرى في كلّ من فرنسا وهولندا ولوكسمبورغ.

ما يميّز أنيس هو إيمانه بوجود الفرص وسعيه إليها، فقرار الهجرة جاء بعد أن رأى فيها فرصة للنجاح، لذلك تحدّى كلّ العوائق التي واجهته لتنفيذ هذا

---

[18] الهويّاتي من مصطلح الهوية «Identity» والتي يعرفها محمد السيد عبد الرحمن، في كتابه: *مقياس موضوعي لرتب الهوية الإيديولوجية والاجتماعية في مرحلتي المراهقة المتأخرة والرشد المبكر*، والمنشور في كلية التربية، جامعة الزقازيق، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، مصر، ص. 400، بأنّها «مقدار ما يحققه الفرد من الوعي بالذات والتفرد والاستقلالية، وأنه ذو كيان متميز عن الآخرين، والإحساس بالتكامل الداخلي والتماثل والاستمرارية عبر الزمن، والتمسك بالمثاليات والقيم السائدة في ثقافته».

القرار. كانت ظروفه غير مناسبة للهجرة بهدف الدّراسة فمستواه الدراسيّ كان متوسّطا وهو كبير أربعة أبناء كلّهم على مقاعد الدراسة حينها، ومع ذلك أصرّ على تحقيق حلمه.

في البداية قرّر أنيس التخلّي عن الدراسة في جامعة بنزرت شعبة «علوم الأحياء والأرض» والعمل لسنة كاملة ليتكفّل بمصاريف هجرته إلى لوكسمبورغ للدراسة. كان يرى في الهجرة إلى أوروبا فرصة لتكوين ذاته وتطويرها ولا يرى حلاّ غيرها، كيف لا وقد امتلأت مخيّلته بالصور الجميلة عنها. اكتسب تلك الصور منذ أن كان يدرس في المعهد الثانويّ بجرجيس حين سمع من زملائه ذوي الجنسيات الأوروبيّة عن أوروبا وعن المستوى المعيشي فيها وعن الفرص المتاحة هناك. ثمّ وفي سنة الباكالوريا أي سنة 2001 وبالصدفة كان له صديق يدرس في لوكسمبورغ حدّثه عن تجربته وعن مزايا العيش فيها فحسم قراره بالسفر إليها.

أتمّ أنيس إجراءات السفر ووصل إلى بلد المهجر وبدأ الدراسة في الجامعة في نفس الشعبة المعهودة، وهناك اكتشف أنّ بإمكانه دراسة الإعلامية التي يهواها ويحلم بها والتي لم يتمكّن من دراستها في تونس. إذن غامر وغيّر تخصّصه رغم العراقيل التي اعترضته فهو لا يمتلك التكوين اللاّزم لها ولم يكن مطّلعا على عدّة مواد في تونس لكنّه أصرّ على النجاح في توجّهه الجديد. ثم تخرّج أنيس بعد أربع سنوات وعمل في شركة خاصّة اكتشف فيها تطوّر المجال وآفاقه فعاد إلى مقاعد الدراسة وطوّر معارفه بدراسة الماجستير المهني في إعلامية الحماية والتشفير.

أتيحت لأنيس الفرصة لتطوير مهاراته من خلال البحث العلميّ إذ اتفق مع زملائه على تقديم مشروع بحث يدعمه مخبر جامعتهم، الذي يفتح الباب أمام الطلبة القدامى لتطوير أفكارهم، وتمكّنوا من خلاله من ابتكار «مفتاح التشفير» الإلكترونيّ. غيّر هذا المشروع حياة أنيس إذ صار يعمل لحسابه الخاص ومساهم في شركة معروفة في مجال تخصصه.

أحسن أنيس استغلال الظرف الخاص للبلد الذي هاجر إليه، فعلى حدّ قوله إنّ 55% من السكان هم من المهاجرين وهذا من شأنه أن يخفّف عليه الشعور بالغربة. كما أنّ قلّة عدد السكان، قرابة 420 ألف ساكن فقط، يسّر عليه إيجاد

عمل أثناء الدراسة. لكنّه يُعتبر أيضا طموحا ولا يعترف بالحدود الجغرافية كعائق أمام اقتناص الفرص والسعي إليها إذ أنّه أنجز مشاريع أخرى خاصة به في فرنسا وهولندا.

هكذا تحوّل أنيس من الطّالب البسيط في بلده و القادم من عائلة منتمية إلى طبقة اجتماعية متوسطة تتشارك في تغطية مصاريف سفره ودراسته إلى مهاجر مؤقت وطالب للعلم يقسّم أوقاته بين العمل والدّراسة، ثمّ إلى متميّز في تخصّصه العلميّ والمهنيّ ورجل أعمال في أكثر من بلد أوروبيّ.

2.1. تطوير الذات بين الإرادة والحوافز الخارجيّة

كانت لأنيس الرغبة في تغيير واقعه إلى الأفضل، وكان يرى أنّ هذا التغيير لن يتحقّق إلاّ بهجرته إلى أوروبا. لهذا بحث في الخيارات الممكنة أمامه وحين حسم قراره في الهجرة إلى لوكسمبورغ كرّس وقته وجهده لبلوغ هدفه، فتتبع الإجراءات الإداريّة المطلوبة واشتغل ليتمكن من تغطية تكاليف الهجرة والدراسة. كما مكّن إتقان اللغات والإصرار على النجاح أنيس من الاندماج بسهولة في الوسط الدراسي والاجتماعي، ولم تكن لديه حدود في طلب المعرفة وتحصيل العلم، إذ حمله شغفه بالإعلاميّة إلى مواصلة الدراسة في الماجستير وخوض غمار البحث العلميّ الذي مكنه من بعث مشروعه الخاص. ويبدو أنّ هذا الشغف قد توقّف عند ذلك الحدّ وتحوّل اهتمامه إلى المشاريع التجاريّة المربحة.

لم يدّخر أنيس جهدا في تطوير ذاته وتحقيق حلمه. لكن جهده الخاص لم يكن السبب الوحيد وراء نجاح تجربته في الهجرة، إذ توجد عوامل خارجيّة كان لها دور مهمّ في تحفيزه على مواصلة السعي نحو تحقيق نجاحاته. أول هذه الحوافز كان وجود صديق سبقه في تجربة الهجرة الى البلد المقصود و هو من يسّر عليه الاتصال بالجامعة والقيام بالإجراءات الإدارية اللازمة، كما عرّفه مسبقا على الخصائص الاجتماعية والاقتصادية لبلد المهجر. زد على ذلك أنّه كان محظوظا بالدراسة في أول مركز جامعيّ يفتح هناك وبالتالي لم تعترضه الصعوبات التي يعيشها الطلبة عادة في باقي البلدان الأوروبية، بل على العكس تماما، تمكّن من اختيار اختصاص جديد، وتمتّع بالاهتمام الكامل من موظفي الإدارة، وتلقّى دعما من الأساتذة الذين كانوا يرغبون في إنجاح تجربتهم الأولى والمتمثلة في

إقامة جامعة محليّة. ويبدو أنّ هذه الجامعة كانت فاعلا أساسيا في نجاح تجربته إذ بعد تخرّجه ودخوله سوق الشغل، مكّنته جامعته من إقامة بحوث في مخبرها ودعّمت مشروعه الذي غيّر حياته.

كما كان لقوة الرقابة وصرامة القوانين في بلد المهجر دور مهم في صقل شخصية أنيس إذ أنّ مخالفتها كان يمكن أن يحرمه كطالب من النقل المجاني، كما أنّ رسوبه لأكثر من سنة يمنعه من تجديد الإقامة بها، وهو يرى أنّ هذا ما يدفع بالجميع إلى أن يكونوا جدّيين ومنضبطين. وفي هذا الخصوص تعطي الجامعة دروسا في المواطنة وفي تقويم السلوك على يد مختصّين ويقول أنيس "زد على ذلك أنّ الدولة توفّر كل الحاجيات الضروريّة... وتبعا لذلك لا داعي للاحتجاج أو الخروج عن القانون".

2. روح المغامرة سبيل النجاح

هناك خيط رفيع بين المغامرة والتهوّر، فالهجرة إمّا أن تكون مدروسة فتتحول إلى مغامرة ناجحة تعطي ثمارها المرجوّة، أو أن تتحوّل إلى تهوّر يحصد المهاجر خيباته. ومهما كانت شجاعة المهاجر عليه أنّ يحمل رهانا واضحاً يتجهّز له كما ينبغي قبل خوض المغامرة.

1.2. المغامرة قرار

المغامرة الناجحة ليست عبثيّة إذ يجب أن تكون مدروسة ومبنيّة على قرارات واضحة أو أنّها ستكون طيشا، لذلك يرى أنيس انه إذا ما قرّر الشخص الهجرة فإنّه سيفعل أيّ شيء لينجح في ذلك. وقراره لم يأت من عدم، فحين كان يدرس بالمعهد كان أغلب زملائه من ذوي الجنسيّة المزدوجة وكانوا يزورون أوروبا في العطل المدرسيّة، وكثيرا ما وصفوا له المستوى المعيشي العالي في الدول الاروبية. ومنذ تلك المرحلة بدأ يفكر في البلد الذي سيهاجر إليه واستبعد فرنسا رغم أنّها وجهة أغلب مهاجري جرجيس، فبالنسبة اليه إجراءات السفر إليها كانت معقّدة جدّا ولم يكن لديه منْ يكْفلُه هناك، لذا فكّر في الهجرة لألمانيا لوجود كافل له فيها. لكن وجهته تغيرت في سنة الباكالوريا إلى لوكسمبورغ بفضل صديقه.

في سنة 2001 تأجّل سفر أنيس لسنة كاملة فقد كان ينقصه المال ليتكفّل بمصاريف هجرته. اذ كانت أسرته متوسّطة الحال، فوالده غطّاس وأمّه كانت تمتهن الخياطة أحيانا وأخوته أصغر منه سنّا وجميعهم يدرسون. لذلك وبعد نجاحه في الباكالوريا قرّر العمل بدل الدراسة ليوفّر مصاريف الهجرة ولكي لا يكون عبئا على والديه وإخوته، ومع ذلك تحصّل على بعض الدّعم منهم. في تلك الفترة حرص على بناء فكرة أوليّة عن البلد الذي سيقصده عن طريق صديقه وباستخدام الإنترنت.

صحيح أنّ أنيس كان مغامرا في قراراته لكن هذا لا ينفي تأثير المحيط على تجربته. ففي تونس كان المحيط مليئا ب العوامل المنفرة الدافعة للهجرة، وعلى العكس من ذلك كان المحيط في لوكسمبورغ محفّزا على الاستقرار والنجاح. فحين هاجر إليها لم تكن هناك أزمة الهجرة غير الشرعيّة التي نعيشها اليوم والتي أثّرت على سوق الشغل وعلى الخدمات المتاحة من قبل الدولة المستقبلة، فأنيس، مثلا، تحصّل في ذلك الوقت على عقد عمل كطالب بسهولة وكان بإمكانه ترتيب أوقات العمل حسب شغورات الدراسة .

كما تحصّل أنيس على دعم موظّفي المركز الجامعيّ بلوكسمبورغ الذي درس فيه، والذي كان يسعى للانفتاح على الخارج وجذب الأجانب. كما تلقى المعاملة الحسنة والمساعدة في فتح حساب بنكيّ وفي البحث عن إقامة، كما أنّ الدولة كانت توفّر الرّعاية الصحّية والنقل المجانيّين للطلبة. زد على ذلك أنّ الجامعة فتحت له المجال ليغيّر تخصّصه الدّراسي.

تنبع أغلب قرارات أنيس من المستجدات التي تحدث في المحيط الذي يتواجد فيه. فما إن تظهر الفرصة أو الظرف المناسب حتى يغيّر وضعيّته ويستغلّ ما يتاح له من فرص. فهو يتخذ قراره بعد أن يدرس الوضعيّة الجديدة جيّدا ويتحضّر لنتائجها. فمثلا حين تبيّنت له اهمية الآفاق التي يحملها اختصاص الإعلاميّة لم يتردّد في العودة لدراسة الماجستير المهنيّ مع أنّه كان قد بدأ العمل حينها في شركة ك.ب.م.ج لوكسمبورغ وهي شركة مختصّة في كل ما هو متعلق بالاستخلاص بالبطاقات الرقميّة البنكيّة عبر الانترنت في لوكسمبورغ. ثمّ بعد الانتهاء من الماجستير تحصّل على وظيفة بشركة سنترال لوكسمبورغ وهي وظيفة لها وزنها في السوق والعمل فيها مسؤوليّة كبيرة.

ورغم انه من المعتاد أن يستقرّ الأشخاص في أول وظيفة قارّة تضمن لهم العيش الكريم الا ان هذا لم يحصل مع أنيس. فروح المغامرة التي يحملها كانت تدفعه في كلّ مرّة إلى التقدّم والسعي نحو الأفضل، فقد قرّر تطوير أفكاره حول مشروع «مفتاح التشفير» بمساعدة رفاقه وبالاشتراك مع مخبر الجامعة التي درس فيها. وبذلك اتخذ خطوة جديدة في مساره المهنيّ انتقل على إثرها من العمل لدى الغير إلى العمل في مشروعه الخاص، ومن هناك وسّع مجال عمله من لوكسمبورغ إلى ألمانيا وفرنسا وهولندا.

2.2. الرّهان طريق النّجاح

«من يقرّر الهجرة سيفعل أيّ شيء ليحقق هدفه»، هذا ما قاله أنيس وهوما فعله فعلا إذ أنّه تحدى كل العراقيل ووضع هدفه نصب عينيه ولم يُثنِه عن ذلك قلة المال ولا بعد المسافة، ولا غرابة البلد الذي هاجر إليه، ولا حتى عدم وجود سفارة للكسمبورغ في تونس. وهذا ليس غريبا على شبابنا اليوم، فهم يرون في الهجرة بابا يخرجهم من العطوبة الاجتماعيّة والدونيّة إلى الارتقاء اقتصاديّا واجتماعيّا، لكن ما يميّز مهاجرا ما عن غيره هو نظرته للنجاح. فهناك من يرى في الهجرة طريقا للعمل وكسب المال بالعملة الصّعبة، وهناك من يراها بابا للعلم والمعرفة وهناك من يرى فيها شيئا آخر. المهمّ أنّه على المهاجر أن يحمل رهانا يوجّهه، لكن هذا لا يمنع أن يتغيّر الرهان بآخر أجدى منه أثناء الرحلة. ففي بداية هجرته كان هدف أنيس دراسة «علوم الحياة والأرض» وكان يطمح الى القيام ببحوث علميّة في ذلك الاختصاص، وحين وجد الفرصة للتغيير لم يتراجع وغيّر توجهه نحو ما رآه أفضل، وحمل بذلك رهانا جديدا وهو الحصول على شهادة في الإعلاميّة. ثمّ إنّ النجاح في الدراسة في لوكسمبورغ كان في حدّ ذاته رهانا إجباريّا فهو شرط من شروط البقاء في ذلك البلد وفي تلك المؤسسة الجامعيّة.

نجح أنيس في دراسته ودعّم نجاحه بتحسين مستواه العلميّ بالحصول على شهادة الماجستير ودخل مجال العمل بأفكار وأحلام جديدة. فبعد أن جرّب العمل في شركات معروفة في حماية المعلومات البنكيّة تبيّن له أن أحلامه أكبر من مجرّد العمل كموظّف. فبالنسبة الى أنيس كلّما كان للفرد رهان يسعى إليه كلما تولّدت لديه الطاقة ليواصل المسيرة نحو النجاح. وكلّما حقق رهانا ما اتسعت أفق أحلامه

ومطالبه وبحث عن هدف جديد وإلاّ لن يكون لحياته معنى . وهذا المبدأ جعل أنيس يسعى جاهدا إلى تحقيق هدفه الجديد بأن اتّصل بزملاء الدراسة واتفق معهم على التقّدم بمشروع بحث لمخبر البحوث بجامعة لوكسمبورغ. و تمكّن في النهاية مع فريق عمله من إنتاج «مفتاح التشفير» الذي تمّ استعماله فيما بعد في لوكسمبورغ ثمّ في ألمانيا وهولندا. ومكّنه هذا الانجاز من الخروج من عمله كموظّف بشركة وتحقيق هدفه في أن يكون من أصحاب العمل الخاص كمساهم في شركة من ناحية وفي أن يدخل مجال البحوث والمعرفة ويستفيد منهما من ناحية اخرى.

يرى أنيس أنّ أغلب المهاجرين اليوم يطمحون إلى تحسين مستواهم الماديّ بالأساس دون الرغبة في استغلال ما يمكن أن تتيحه لهم الهجرة من فرص. فبالنسبة اليه يجب أن يكون الهدف الأوّل من الهجرة هو تطوير الذّات والحصول على ما لم يتح في تونس من فرص وإمكانيات، فالذي يملك زادا معرفيّا أمامه فرص كثيرة خاصّة أنّ الأوروبيين يقدّرون من يلمسون فيه روح العمل. أمّا إن كان الهدف ماديّا بحتا فإنّ الهجرة مُتعِبة و"كما نقول بالعاميّة "تمرميد"[19] وعلى المهاجر أن يكون متهيّئا لمشاكل السكن وغيرها.

3. تجربة الهجرة بين التحرّر من الضوابط والتمسّك بالأصل

يقف المهاجر التونسيّ حائرا بين رغبتين كامنتين فيه، متصارعتين داخله، الأولى هي الرغبة في التحرّر من كلّ أشكال الضوابط الاجتماعيّة التي عرفها في بلده الأم. والثانية هي الرّغبة في العودة إلى الأصل، ذلك الأصل الذي يتضمّن عاداته وتقاليده ومقدّساته والضابط الاجتماعيّ الذي يرغب في التحرّر منه. هي مفارقة يعيشها خاصّة المهاجر العربيّ، المسلم، التقليديّ شرقيّ الهوى، ويشعر بها في بلد عَلمانيّ أو مسيحيّ، غربيّ ومتحرّر.

1.3. البحث عن الذات في بلد المهجر

كان أنيس يتوق الى الهجرة إلى أوروبا، حيث يوجد الغرب المختلف والذي كان شغوفا باكتشافه ورؤية ما حدّثه رفاقه عنه، كالمستوى الاجتماعي الراقيّ،

[19] تمرميد هي لفظة من اللهجة التونسيّة وتعني المرور بعوائق تصعّب العيش.

والفرص المتاحة، والتحرّر الاجتماعيّ والعلميّ والفكريّ... ويبدو أن ظنه لم يخب، إذ تفاجأ بالمعاملة الحسنة في البلد وفي الجامعة. فقد تلقّى أنيس المساعدة من موظفي الجامعة ووجد مرونة في التعامل معه كطالب أجنبي. فمثلا دعّمه أساتذته ليتدارك النقص في الدروس، ووجد عملا يغطّي مصاريفه. لم يجد أنيس إشكالا في الاندماج، ففي الجامعة كان اندماجه في الصفّ الدراسيّ يسيرا خاصّة أنّ أغلب زملائه من المهاجرين. كذلك لم يجد إشكالا في الاندماج في المجتمع لأنّ القوانين حسب رأيه معمّمة ويجد نفسه يطبّق القانون آليّا، فالجميع لهم نفس السلوك الاجتماعي والجميع يطبّقون القانون.

ورغم الحفاوة التي تلقاها أنيس ورغم إمكانيات الدولة المستقبلة وقدرتها على إدماج المهاجرين، إلاّ أنّ أوّل شيء فعله منذ وصوله إلى لوكسمبورغ هو البحث عن «أولاد بلده». فكان يبحث عن تونسيّ وإن لم يجد يبحث عن عربيّ وإن تعسّر ذلك يبحث عن إفريقيّ، وفي الأخير تعرّف على جزائري ومغربيّ وكاميرونيّين. وكأنّه يبحث عن ذاته التي لم يجد ما يشبهها في العالم الغريب. فبحثه عن تونسيّ هو في الأصل بحث عن صورة مطابقة لذاته أو لهويته، وحين يئس صار راضيا بمن يحمل بعض سماتها كالجذر، اللّغة وخاصة الجغرافيا. والملفت هنا أنّه ركّز على البحث عن الجذور الجغرافيّة أكثر من الدّين مثلا أو اللغة.

كما أنّ اندماج أنيس في المجتمع الغربيّ، والذي كان للدولة دور مهمّ في إنجاحه عبر التعليم وفرض القوانين الرادعة وتعميمها، لم يمنع شعوره بالاغتراب. هذا الاغتراب عبّر عنه بأنّه بقي دائما يشعر أنّه في علاقة عرض وطلب مع بلد المهجر إذ يرى بأنّه مطالب بالعطاء مقابل الخدمات التي تحصّل عليها أثناء دراسته خاصّة. فلو لم ينجح في الدراسة لما تسنى له الاستمرار في العيش في ذلك البلد فهو مطالب بالاستظهار بما يثبت نجاحه أثناء تسوية أوراق إقامته كل سنة. هذه المساومة على البقاء مقابل النجاح لا يعيشها الطالب في بلده الأم. حين يفقد أنيس ذاته ويبحث عنها في بلد وفّر له كلّ سبل تحقيق الذات وتطويرها فإنّه ينتقل من وضعيّة العطوبة العلميّة والماديّة إلى وضعيّة التمكين المادي والعلمي والمعرفي ولكن أيضا ينتقل إلى عطوبة جديدة، وهي «عطوبة هوياتيّة». فالمجتمع العربيّ/ الشمال إفريقيّ والمسلم الذي جاء منه يحمل سمات

تكاد تكون مناقضة ومتصادمة مع سمات المجتمع الأوروبيّ الذي يعيش فيه. هذه العطوبة الهوياتيّة هي من سيحسم علاقة أنيس ومهاجرين كثيرين مثله ببلدهم الأم مستقبلا، فكلّ عطوبة يبحث صاحبها عن تمكين، فإمّا أن يعود أنيس إلى بلده الأم ويجلب معه ما يهوّن تِيهه واغترابه أو أنْ يصنع من واقعه الجديد هويّة جديدة بديلة لهويّته الأولى.

2.3. التحرّر من الجذور والعودة إلى الأصل

ممّا لا شكّ فيه أن أنيس قد أعجب بلوكسمبورغ، فرغم أن أغلب أبناء بلده يخيّرون الذهاب إلى فرنسا، ورغم أنّه تمكّن من إقامة عدّة مشاريع في عدّة بلدان أوروبيّة واصبح يقضي كل أشغاله عبر الإنترنت، إلّا أنّه متمسّك بالاستقرار فيها. فمنذ وصوله أعجب بصرامة قوانين البلد المستضيف وبالامتيازات التي تعطيها الدولة للطلبة، فالرّعاية الصحّية والنقل مجانيين، ومراعاة العمل لجدول أوقاته الدّراسيّ عوامل جعلته يندمج مع المنظومة المجتمعية الجديدة ويتخلّى تدريجيّا عن العادات التي حملها معه من تونس فقد اصبح يشعر انه، على المستوى الاجتماعي، صار أوروبيا أكثر من كونه تونسيّا. وحتى عند عودته إلى بلده في العطل بات يحس باختلاف عقليته عن عقليّة أهله ويلاحظ ذلك في سلوكه اليوميّ.

عاش أنيس أغلب فترة شبابه في بلد أوروبيّ فنشأ على ثقافة جديدة ساهمت في تعديل سلوكه وفكره وكوّنت عنده نظرة ناقدة جعلته يقارن بين الثقافات المختلفة وأوّلها ثقافة بلده الأم. كما اكتسب نمطا علائقيّا جديدا فأصبح أكثر انفتاحا في علاقاته إذ يقول إنّه ارتبط بعدّة أجنبيات وكوّن صداقات من بلدان عدة. وهذا الانغماس في عالمه الجديد المتحرّر من شأنه أن يوسّع الهوّة الثقافيّة بينه وبين بلده الأصليّ وأن يكسبه طريقة تفكير جديدة.

وهكذا أصبح أنيس، حسب رأيه، لا يحمل نفس عقليّة أهله واليوم يتقبل العقلية الأوروبية أكثر من العقلية التونسيّة. ويعتبر أنّ تجربته ممتازة على كل المستويات خاصة أنّ البلد الذي هاجر إليه كان منفتحا وبلدا مناسبا للهجرة. وفي حالة عودته إلى تونس فإنّه يأمل أن لا تكون إشكالية التأقلم مع العقلية التونسية سببا في هروبه إلى أوروبا مستقبلا خاصة أنّه يرى أنّ هذه العقليّة مشكلة نعاني منها في أبسط الأشياء حتى عند استخراج ورقة إدارية بسيطة. فما جَذَبه إلى العقليّة

الأوروبيّة هو ما يُنفّره من العقليّة التونسيّة كثقافة العمل التي تعتمد على الوساطة والمعقّدة بيروقراطيّا ولم ترتق بعد إلى ماعرفته الثقافة الاروبية من تطوّر.

ورغم هذه الرغبة في التحرّر فإنّ أنيس يرى أنه حتى مهما حاول ان يندمج مع بلد المهجر فإنّه يوجد دائما من يذكّره بأنه غريب. وان كان ذلك على سبيل المزاح أو الإعجاب فهناك دائما من يحدّثك عن لون بشرتك أوعن عرقك المختلط. ومع أنّه صنع عالمه الجديد في أوروبا واندمج في المجتمع الأوروبي إلاّ أنّ علاقته بالعائلة بقيت دائما قوية. فهو يتصل دائما بوالديه عبر الهاتف أو الانترنت ويزورهما باستمرار. كما أنّ علاقته بإخوته متينة وأصبحت أكثر متانة بسبب الغربة، فهو يدعمهم معنويّا وماليّا أو في شكل استشارات ونصائح. يرى أنيس أنّه لم يغترب الى الدرجة التي تفقده انتماءه فعلاقته بالعائلة قوية وهو يتواصل معهم بلغته العربية وباللهجة العاميّة.

ورغم ان انيس تعرف على عدة أجنبيّات الا انه حين يفكّر في الزواج فإن الموضوع بالنسبة اليه مرتبط دائما بالهوية والأصل أي أنّه يفكّر مباشرة في "بنت البلاد". ويبرّر هذا التفكير في أنّه يرغب في أن يبقى دائم الارتباط بتونس.

ويكشف هذا التفكير في مسألة الارتباط عن خوف من الغد والمجهول، فأنيس رغم اندماجه في المجتمع الأوروبي إلاّ أنّ هناك غربة دفينة لا زالت تسكنه. فهو حين يفكّر في زوجة المستقبل فإنه يراها ضامنا لرجوع أبنائه إلى العائلة وهي التي ستمنعهم من أن يتغرّبوا ويصبحوا أوروبيين مائة بالمائة. فالزواج هو الأمان ففي أحلك الظروف "لا قدر الله إذا متنا تحافظ الزوجة على الأبناء وعلى ارتباطهم بهويتنا".

لقد حكم أنيس مسبقا على ابنائه بانهم مغتربون مع انهم سيولدون في وطنهم. وما اصراره على الزواج من تونسية الا محاولة بحث عن خيط يربط أبناءه بعالم أجداده وهو نفس الخيط الذي ظلّ يربطه دائما ببلده الأم. ويتخذ أنيس من أصدقائه مثالا في تربية الأبناء إذ يتصوّر أنه حين يرزق بأبناء سيحدثهم باللّغة العربية وسيربيهم بنفس التربية التي تلقاها من والديه، مع تمتعهم بمقدار اكبر من الحرية بحكم عيشهم في أوروبا. فهو سيحاول أن يمرّر المبادئ التي تربى عليها لأبنائه وسيحرص على توطيد علاقتهم بالأجداد.

ان الزواج بالنسبة الى أنيس المغامر والمتحرّر فكريّا ومعرفيّا وعلائقياً هو أكثر من مجرّد حبّ صادق أو ارتباط بفتاة جميلة، لأنّ تلك الزوجة ستمثل وطنه الذي رحل عنه فهي "بنت البلاد". إنّها تلك الهويّة التي تخلّى عن جزء كبير منها، وهي تلك العقليّة التي طالما تذمّر منها، لكنّه مع ذلك لا يشعر بالأمان إلاّ معها، ولن يستقرّ إلاّ معها. اذ ربما يرتاح مع أوروبية لكنّه سيبقى دائما يبحث عمّا يربطه بأصوله.

من المفارقات التي يعيشها المهاجرون ومنهم أنيس أنّ العطلة مرتبطة دائما بالعودة إلى تونس رغم ما لديهم من إمكانيات مادية وتسهيلات في السفر والانتقال إلى بلدان أخرى. وفي هذا الخصوص يرى أنيس أنّ العطلة مرتبطة دائما بتونس، على الأقل مرة في السنة، وذلك يعود، حسب رأيه، الى الرغبة الدائمة في العودة إلى الجذور وهذا ما سيمرّره لأبنائه وهو يرى أنّ المهاجرين يحاولون دائما تمرير أصولهم ومبادئهم الأساسيّة لأبنائهم بطريقة أو بأخرى منذ الطّفولة حتى تترسّخ فيهم لأنّهم متى كبروا سيخرج الامر عن سيطرتهم وسيصبح الاختيار بيد الأبناء.

ويفترض أنيس أنّه سيعود إلى تونس مستقبلا أي على المدى البعيد، أمّا الآن فإنّ الوضع في تونس لا يشجع على الرجوع اليها وعلى الاستثمار فيها وهو يرى أنّ الفرص موجودة في أوروبا أكثر منها في تونس، ومع ذلك تبقى تونس هي بلده وإمكانية الرجوع إليها والاستثمار فيها دائما جائز.

الخاتمة

تمثّل الهجرة إلى أوروبا، حسب هذه التجربة التي قدمناها، الخيار الأمثل للشباب الراغب في تطوير نفسه ماديّا ومعرفيّا، وهي أيضا بديل مناسب للّذين ضاقوا ذرعا بالآفاق المسدودة في تونس والتأخّر الإداريّ والتكنولوجيّ والعلميّ. فالبلد المستقبل يمنح المهاجر المكانة الاجتماعيّة التي يطمح اليها داخله والتي لم يحظ بها في بلده الأم وذلك عبر تمكينه من تطوير ذاته علميّا وماديّا. لكن على المهاجر أنّ يرضخ لتعاليم البلد المستقبل وقوانينه الصارمة، لذا عليه أن يكون مغامرا وحاملا لأهداف واضحة ومدروسة ويُحسن استغلال الفرص وإلاّ فسيجد نفسه يعيش حالة إنكار اجتماعي خارج بلده. مع كلّ هذه الإيجابيات النّاتجة

عن الهجرة إلى أوروبا يعيش المهاجر التونسيّ حالة تشتتٍ هويّاتي بين الرغبة في التحرّر والرغبة في العودة إلى الأصول. وبذلك يخرج المهاجر التونسيّ من حالة العطوبة الاجتماعيّة والإنكار الاجتماعي والماديّ والعلميّ بالأساس، إلى حالة عطوبة هويّاتيّة ويضع نفسه في إنكار اجتماعيّ من نوع جديد يعيشه هناك في بلد المهجر الأوروبيّ.

وبينما يرى البعض أنّ الهجرة هي استنزاف ممنهج من الدول المتقدّمة لكفاءات البلدان النّامية، فإنّ التجربة التي درسناها في هذا المقال، تثبت أنّها مشكلة داخليّة بالأساس مرتبطة خاصة بسياسات البلدان النامية المنفّرة لكفاءاتها مقابل سياسات مستقطبة لها في بلدان الغرب خاصة. وهذه المشكلات ليست ماديّة فحسب، فالعقلية السائدة في المجتمع التونسيّ والضغط الاجتماعي الخانق والفساد المسيطر على مؤسسات الدولة جعل ما هو طبيعيّ في مؤسسات أوروبا ومجتمعاتها نراه في تونس فرصة تشدُّ إليها الرّحال. كما تلعب خصوصية المجتمع المحليّ دورا رئيسيا في التحفيز على الهجرة فالشاب يتأثر بالمخيال الشعبي الذي يحمله أفراد مجتمعه عن الهجرة. وهذا المجتمع المحليّ يحدّد قيمة الفرد فيه قبل الهجرة وبعدها. فمثلا العطوبة الاجتماعية لا تعني في حالتنا أنّ الفرد عاجز عن الإنتاج تماما أو أنّه عالة على غيره أو أنّه يعاني من مشكلة في الاندماج الاقتصادي أو المدرسي أو العلائقي، بل على العكس يمكن أن تتوفر فيه كل شروط النجاح والتمكين لكنّه مع ذلك يعيش حالة من الإنكار الاجتماعي. فهو يشعر بالنقص حين يقارن نفسه بالمهاجر إلى أوروبا، أو بمجرّد أن يلاحظ تقديس المجتمع لذلك المهاجر. لذلك يرغب الشاب في التخلّي عن الهويّة المعطوبة التي تولّد فيه الشعور بالدّونيّة، ليعوّضها بهوية المهاجر المرغوبة والمحترمة والمتمكّن ماديّا وعلميّا.

وتلعب العوامل الذاتيّة للفرد أيضا دورا مهما في التحفيز على الهجرة فالشخص الطموح لن يرضى أن يكون نكرة في مجتمعه في الوقت الذي يتاح له فيه كم هائل من الفرص في بلد المهجر. لذا يحمل كلّ مهاجر سمات تميّزه عن غيره من المهاجرين وتميّز تجربته. وتبقى الرغبة في تطوير الذات من أهمّ سمات المهاجر النّاجح وهي مفتاحه لرؤية الفرص التي لا يراها غيره، كما أنّ النجاح يبدأ بقرار مدروس وشجاع كما بيّنته تجربة موضوع بحثنا.

ان الهجرة فرصة لتطوير الذات والخروج من وضعية العطوبة الاجتماعية لكن يجب أن تتوفر عوامل مناسبة لها فالظروف التي وجدها المهاجرون قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر ليست هي نفسها اليوم ولا نفسها بعد قيام الثورات العربية وما سبّبته من زحف للمهاجرين إلى أوروبا ومن تعديل في القوانين والعلاقات بين الدول. كما أنّ للعوامل الذاتية دورا كبيرا في نجاح تجربة الهجرة فالمهاجر المغامر والذي يفكّر في تطوير الذات أكثر من التّفكير في جمع المال، لن يشبعه تحقيق أهدافه الماديّة فحسب بل سيطمح إلى اكتساب أكثر ما يمكن من العلم والمعارف والانفتاح على الآخر والتحرّر علائقيّا وفكريّا وعلميّا وسيسعى إلى استغلال ما اكتسبه في محيط مليء بالفرص ومُقدّر للذات المبدعة والطموحة.

وتبقى أزمة الهويّة حاضرة حتى عند المهاجرين ذوي الدرجات العلميّة العالية رغم قدرتهم على الانفتاح على العالم الغربي أكثر من غيرهم من المهاجرين الآخرين. فرغم انفتاح أفق تفكيرهم ورغم ما اكتسبوه من علم وعلاقات من شانها ان تخوّل لهم رؤية العالم بنظرة كونيّة جديدة إلاّ أنهم في نهاية المطاف يجدون أنفسهم مكبّلين بجذورهم فلا يستسيغون نجاحا ولا ثراء إلاّ بعد جلبه الى اوطانهم واثباته فيها. وكأنّهم يريدون البقاء في نفس المكان ولكن بإمكانيات علميّة وماديّة أخرى، فهم يعشقون الوطن لكن يتمنّون لو أنّه كان بعقليّة أخرى. لذلك يشعرون بالرغبة في العودة عند التّفكير في الزواج أو في تربية الأبناء ويتجدد حرصهم على العودة بابنائهم إلى وطن أجدادهم. وكأنّهم يبحثون عن الأمان في ثنايا ذاكرتهم، فهم يبحثون عن نسخة لوطنهم في ابن أو زوجة "بنت البلاد"، وحتى العطلة عندهم لا تُقضّى إلاّ في وطنهم الأم ولا يستسيغون أفراحهم إلا وهي مصبوغة بما تحمله ثقافتهم من عادات وتقاليد. ويبدو من خلال مستجوبنا أنّ المهاجرين التونسيّين مازالوا على ارتباط وثيق ببلدهم الأم رغم الوضع غير المرضي الذي وجدوه في تونس والذي دفعهم إلى الخروج منها، كما يبدو أنّ هذا الارتباط بالبلد الأم سيتواصل من خلال أبنائهم على الأقلّ.

المراجع

الحاج سالم جهاد، *الشباب الجهادي في دوار هيشر : دراسة إثنوغرافية*، academia.edu 2014. https://www.academia.edu/10163576/ ; SalafiJihadi_Youth_in_a_Popular_Tunisian_Quarter_Douar

المعهد الوطني للإحصاء، *مدنين من خلال التعداد العام للسكان والسكنى لسنة 2014*، تونس، 2016-04-04. http://www.ins.tn/sites/default/files/ publication/pdf/20_MEDNINE.pdf.

عبد الرحمن محمد السيد، *مقياس موضوعي لرتب الهوية الإيديولوجية والاجتماعية في مرحلتي المراهقة المتأخرة والرشد المبكر*، القاهرة، كلية التربية، جامعة الزقازيق، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.

لبيض سالم، *مجتمع القبيلة البناء الاجتماعي وتحولاته في تونس دراسة قبيلة عكّارة*، تونس، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، فيفري 2006.

وزارة الشؤون الاجتماعيّة، تقرير مكتب الدراسات والتخطيط والبرمجة، نوفمبر 2014، دليل الإحصائيات الاجتماعيّة 2014، وزارة الشؤون الاجتماعيّة، تونس. http://www.social.gov.tn/fileadmin/user1/doc/ annuaire_2014_version_final.pdf

Castel Robert ; âLa Dynamique des processus de Marginalisation : de OD 9XQ UDEIODW ¯ OD ' VDIILODWRQ, in *Cahiers de recherche sociologique* ; n 22 ; 1994.

Kaufmann Jean-Claude, */ øHQWHWHQ FRP SUKHQVI* ; Paris, Nathan, 1996.

وجودٌ قدره الهجرة. . . الأطباء التونسيون ورحلة الهجرة إلى ألمانيا[1]

سوسن فري[2]

المقدمة

أن تكون مواطن العالم، أي أن يؤسس الفرد علاقته مع العالم بكل وعي وحرية، في المقابل على العالم أن يوفر لمواطنه الشعور بالأمن والسعادة والكرامة. لا يقيم المواطنون الكونيون أي اعتبار للحدود الجغرافية والاختلافات بين الأفراد والشعوب والثقافات. العالم بالنسبة لهم مدينة واحدة هم مواطنوها[3].

عندما نتساءل عن جذور هذه الفلسفة، يجيبنا الفيلسوف اليوناني "ديوجين الكلبي" بعبارته الشهيرة "أنا مواطن العالم[4]".

بفضل هذه الكلمات المختصرة، استطاع ديوجين أن يعبر عن رفضه للانتماءات الضيقة التي تسطر وجوده وتحدده وفق الانتماء إلى أمة ما أو إلى مكان بعينه. لطالما اعتبر ديوجين الكلبي أن تعريفه لنفسه على أساس اعتبارات أكثر كونية أمر مشرف ويدعو إلى الفخر[5].

---

[1] أنجزت هذه الورقة تحت إشراف الدكتورة «ليليا عثمان شلوقي» في إطار ورشة الكتابة التي نظمتها جمعية تونس الفتاة بالاشتراك مع منظمة كونراد أديناور خلال شهري جويلية وسبتمبر 2019.

[2] متحصلة على شهادة الماجستير في علوم التصرف من المعهد الأعلى للتصرف بتونس وبصدد إعداد مذكرة الماجستير في الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس.

[3] Gérard Valérie، «Etre citoyen du monde»، Tumultes، 2005/1 (n° 24)، p. 13-26. DOI : 10.3917/tumu.024.0013. URL : https://www.cairn.info/revue-tumultes-2005-1-page-13.htm consulté le 28-09-2019

[4] Diogène LAERCE، *Vies، doctrines et sentences des philosophes illustres*، Paris، LGF، 1999. Cité par Brumelot Olivier، «Citoyens du monde» de Martha C. Nussbaum»، *Le Philosophoire*، 2006/2 (n° 27)، p. 227-249. DOI : 10.3917/phoir.027.0227. URL : https://www.cairn.info/revue-le-philosophoire-2006-2-page-227.htm consulté le 16-11-2019

[5] Brumelot Olivier، «Citoyens du monde» de Martha C. Nussbaum»، *Le Philosophoire*، 2006/2 (n° 27)، p. 227-249. DOI : 10.3917/phoir.027.0227. URL : https://www.cairn.info/revue-le-philosophoire-2006-2-page-227.htm

تعتبر هذه الفلسفة إذن منهج حياة يسمح بتجاوز الحدود المقيدة كاليومي والصور النمطية والعادات والأعراف. هي فلسفة قصووية ترغب في خوض التجارب لبلوغ أفق أرحب. يتعامل مواطن العالم مع هذه التجارب في اكتشاف الاخر والمختلف باعتباره محددا لوجوده وتعتبر تجربة الهجرة إحدى أبرز الأشكال التي تتجلى فيها ممارسة هذه الفلسفة عبر التاريخ. لذلك نجد هذا المواطن العالمي في سفر وترحال مستمرّين من مكان الى اخر. كلما استقر في مكان ما إلا واستبد به الشعور بالانتماء لعدم الانتماء وزاد توقه الى الترحال مجددا. ترتبط هذه الفلسفة عند الشباب بالمغامرة والتجربة ولكنها تحيل الى أشياء أعمق وأعقد، فالانتماء إلى اللامكان هو المحرك الرئيسي لهم. كأننا بهم في وجود قدره الهجرة.

يقول الفيلسوف التونسي فتحي المسكيني في هذا الصدد "ولأنّه لا يمكن لأحد أن يتحرر أكثر من جسده، فإنّه لا ينبغي أن يبقى من ملجأ آخر للحرية الحرة غير أنموذج الحياة التي تدافع عنه. وليس عيبا أخلاقيا أن يشعر أحدهم أنّه لم يعد مواطنا لأي دولة. وأن يهاجر. فالهجرة نوع من وضع الدولة بين قوسين، والتجرّؤ على الكشف عن هشاشة إقليميتها. فالإقليم حين يصبح عبئا يحول دون قدرة الناس على الحياة، يتحوّل إلى حدود ورقية في العقول الحرة. ولابدّ من زعزعة بداهته القانونية الصرفة، ومهاجمته أخلاقيا بحركة الأجسام الحية[6]».

في السنوات الأخيرة التي تلت الثورة التونسية، تفاقمت بشدة ظاهرة هجرة الكفاءات. حتى أضحت موضوعا حارقا له انعكاسات اجتماعية وثقافية واقتصادية مباشرة على المجتمع. مما شجعنا على مقاربة هذا الموضوع علميا عن طريق تقنية «البورتريه»[7] بغرض الفهم. اخترنا في هذه الورقة أن نقارب هذه الظاهرة

[6] فتحي المسكيني ، «المركزيون أو في المواطنة المشطة»، *الحوار المتمدن*، العدد 3977، 2019 .http://www ahewar.org/debat/s.asp?aid=341776 مراجعة على الانترنت يوم 25 سبتمبر

[7] Amanda Rueda، «Du portrait cinématographique documentaire au portrait en sciences de l'information et de la communication»، *Sciences de la société* [En ligne]، 92 | 2014، publié le 01 décembre 2014، https://journals.openedition.org/sds/1226?lang=es#tocto1n2 consulté le 18 novembre 2019

يواسطة المقابلة التفهمية. اخترنا السيد أمين لإجراء هذه المقابلة، بإعتباره طبيبا مهاجرا يقيم في ألمانيا. وتمت المقابلة بواسطة تقنية السكايب يوم 07 أوت 2019، أين حاولنا الحفر في ذاكرة محاورنا وفي سيرورة الأحداث والتحولات التي مر بها لفهم الدوافع الذاتية و الموضوعية التي دفعته إلى المغادرة.

سنحاول خلال هذا البورتريه الإجابة على الأسئلة الإشكالية التالية :

هل يمكن تفسير ظاهرة الهجرة بالرغبة في الاكتشاف و حب المغامرة ؟

هل يمكن اعتبار تجربة الهجرة تجربة ذاتية و اجتماعية في نفس الوقت ؟

إلى أي مدى يمكن اعتبار الرغبة في التحرر عاملا من العوامل المشجعة على الهجرة ؟

إلى أي مدى يمكن اعتبار الظروف الموضوعية عاملا من العوامل المشجعة على الهجرة ؟

سنتعرض خلال هذه الورقة إلى تجربة الشاب "أمين" من خلال أربعة محاور كبرى. يتعرض المحور الأول إلى مجموع التجارب التي مر بها أمين في حياته وبلورت علاقته بمفهوم الإنتماء والوطن و جعلته يشكّل رؤيته الخاصة لهما، مما أدى إلى سهولة اندماجه في المجتمع الألماني إثر الهجرة إليه. ينقسم هذا المحور إلى عنصرين تحت عنواني «روافد متنوعة وترحال مستمر» و«في العلاقة بالآخر». أما المحور الثاني فيتطرق إلى مجموع الظروف الموضوعية التي لعبت دورا في تشجيعه على المضي في قرار الهجرة إلى ألمانيا. ينقسم هذا المحور بدوره إلى عنصرين يحمل الاول عنوان «نظام تعليمي مهترئ وظروف عمل قاسية» والثاني «رحلة الوصول إلى ألمانيا».

خصّصنا المحورين الثالث و الرابع لتناول بعدين أساسيين في شخصية محاورنا دفعاه لخوض تجربة الهجرة، يتمثل الأول في توقه الدائم للتحرر من كل القيود واعتبارها بمثابة معنى من معاني الوجود وقسمناه إلى عنصرين اثنين تحت عنواني «الهجرة رحلة للبحث عن المعنى» و«التحفظ على المؤسسات ورفض القيود». أما البعد الثاني فيتمثل في تميز شخصيته بشعور دائم بالملل تعامل معه باعتباره محركا لخوض تجارب جديدة. ينقسم هذا المحور بدوره إلى

عنصرين، تحت عنواني «الهجرة تجربة لاكتشاف الجديد» و«كل رحلة جديدة هي أفق روحي جديد».

1. لا أشعر بالانتماء إلى أي مكان.. أنا مواطن العالم

رغم ما يولّده عدم الاستقرار في مكان بعينه و تنوع المرجعيات الثقافية عند البعض من تمزق واضطراب في عدة أحيان، إلا أنه كان عاملا من العوامل التي أدت إلى انفتاح شخصية محاورنا وجعله لا يشعر بالارتباط بمدينة أو وطن أو ثقافة بعينها. هذا الانفتاح ساهم بشكل مباشر في سرعة اندماجه في المجتمع الألماني إثر الهجرة إليه.

1.1. روافد متنوعة وترحال مستمر

بدأ أمين «رحلة تعريفه لنفسه» بالقول بأنه يبلغ من العمر زهاء ثلاث وثلاثين عاما، «بسبب التقاء الأقدار مع الصدفة الجغرافية نستطيع أن نقول إنه تونسي الجنسية» حسب تعبيره. متزوج منذ حوالي ثلاثة سنوات. كانت نشأته الأولى في مدينة «سلقطة» الساحلية. «أظن بأن للبحر دورا في التأثير في مزاجي وحتى في خياراتي الكبرى، لقد غذى في داخلي رغبة جامحة في اكتشاف الاخر المختلف. حنا مينه كذلك يقول هذا عن البحر».

تتكون عائلة أمين من ستة أفراد ؛ والداه، اللذان معلّما مرحلة ابتدائية، وأربعة إخوةهو أصغرهم. لقد كان الفتى الوحيد بين ثلاث أخوات، صغراهما تكبره بخمس سنوات، لذلك حظي بالكثير من العناية من قبل والدته التي كانت تدفعه ليكون دوما ما يريد.

تعود أصول والدته إلى مدينة منزل تميم من ولاية نابل، لذلك كان ينتقل باستمرار بين المدينتين. كانت والدته تحرص على قضاء العطل المدرسية بين أهلها في منزل تميم وكان أمين يرافقها في كل زياراتها الى هناك. أدى هذا التنوع الى إذكاء شعور سيلازمه طويلا بعدم الانتماء الى مكان بعينه. يتمظهر هذا الشعور باللا انتماء في نفور مخاطبنا من تعريف نفسه بأنه ساحلي مثلا، إذ أنه يكره مثل هذه الانتماءات الجهوية الضيقة. "لطالما ضقت ذرعا بهذه الحدود الوهمية، أكره أن تقيدني اعتبارات سخيفة لم يكن لي الحق في اختيارها". يرفض

مخاطبنا بشكل قطعي أن يتباهى بانتمائه إلى الساحل، الذي يعتبر محظوظا مقارنة بغيره من جهات البلاد. إذ أنه لم يكن يفتخر بشيء تقريبا. قضية الانتماء والهوية لا تعني له شيئا. انتماؤه إلى تونس نفسها لا يعني له شيئا. الصدفة الجغرافية فقط جعلت منه تونسيا. إنه مواطن العالم الذي يرغب في الانتماء الى البشرية جمعاء، لا الى مسقط رأس أمه أو أبيه.

عندما كان طفلا كان أكثر سؤال يزعجه : " أي المدينتين تفضل ؟ سلقطة أو منزل تميم ؟" كان أمين يجيب ببساطة بأن كلتيهما جميلتان. لم يكن يشعر بميل ما الى مدينة بعينها، رغم ان أمه كانت شديدة الحرص على جعله مرتبطا بمسقط رأسها في منزل تميم. من بين الأساليب التي كانت تتوخاها والدته لتحقيق مرادها، منع إبنها من استعمال عبارة "آني" الساحلية. يقول أمين إنّ لهجته كانت أقرب الى لهجة الوطن القبلي منها الى لهجة الساحل. ربما كانت تنتصر بذلك لاختلافها. عندما كبر قليلا تطور السؤال وأضحى من أي المدينتين تفضل أن تكون زوجتك. طبعا عندما أحب زوجته أسماء لم يبال أبدا بهذا الاعتبار. "أعتقد أنه اعتبار سخيف للغاية".

عدم الشعور بالانتماء بالنسبة له كان يعني أيضا أنه رغم انتمائه إلى الساحل كان فريقه الرياضي المفضل نادي الترجي الرياضي.

عندما بلغ أمين من العمر أحد عشر عاما، قررت عائلته أن تنتقل الى مدينة تونس. لم يذكر مخاطبنا الأسباب التي دفعت بعائلته الى أخذ هذا القرار ولكنه أشار الى أن الأمر لم يكن سهلا بالنسبة إليه. كان مرسما حينها بالسنة السادسة ابتدائي. لقد اضطره الأمر الى تكوين صداقات جديدة في محيط غريب عنه. كما أنه لم يعد يحظى بامتياز أن يدرس عند والديه. كأننا بأمين يغادر منطقة الأمان لأول مرة في حياته..

بعد ذلك بسنة واحدة كان عليه أن يتأقلم مجددا في محيط غريب آخر بسبب مروره الى المرحلة الاعدادية. مرت سنوات المرحلة الإعدادية الثلاث بسرعة ودون أحداث مميزة تذكر، عدا ختمها بنجاح باهر في مناظرة ختم دروس التعليم الاساسي، مما مكنه من الولوج الى المعهد النموذجي بأريانة.

كان أمين مغرما بعوالم الفكر والأدب والكتابة، يقضي أغلب أوقاته بين رفوف المكتبة المعلوماتية بأريانة، ساعيا الى توسيع دائرة معارفه بالاعتكاف داخلها لساعات طويلة كل يوم. كان مقبلا على المعرفة وعلى جمع المعلومات بنهم شديد، حتى أنه ورغم عدم استحضاره بدقة للعناوين التي كان يطالعها إلا أنه يذكر التهامه لاثني عشر مجلدا حول تاريخ الحضارات في مدة محدودة. كما أنه كان مولعا بالفلسفة وعوالم الفكر والتدبر. كان حينها وفي سن يمكن اعتبارها مبكرة قد بدأ في التعرف إلى الآخر.

يقول أمين إنّ والده كان يكتب الشعر، فكتب الشعر بدوره، أو لنقل بشكل أدق إنه حاول كتابة الشعر. "ربما هي عقدة أوديب". صحيح أنه كتب بعض الشعر ولكنه كان عقلانيا ولم يسمح لنفسه بالانخراط في عوالمه بكل جوارحه. "لقد حاولت أن أحافظ دوما على مسافة بيني وبينه. كنت أخشى الغرق فيه. الدراسة كانت أولويتي كما أن والدي لم يشجعني بدوره على كتابة الشعر". يقر أمين بأنّ ميولاته الأدبية ساعدته على التفوق بسهولة ودون بذل الكثير من الجهد في المعهد النموذجي. لقد حقق الفارق بفضل تميزه في الإنسانيات التي لم يكن يوليها زملاؤه أي اهتمام يذكر حتى أنه يعتقد جازما بأن تلك السنوات هي أجمل ما عرف طيلة حياته "ليتها لم تنته".

بعد ذلك كانت سنة الباكالوريا، أين قرر أن يتفرغ للدراسة وابتعد قليلا عن عوالم المكتبة. كان يطمح لتحصيل معدل متميز يسمح له بالدخول الى كلية الطب عملا بنصيحة أخته الكبرى التي كانت تعتقد أنّ مهنة الطب ستضمن له حياة جيدة. في خضم كل ذاك "جرب" حسب عبارته الكثير من الديانات.

2.1. في العلاقة بالآخر..

لتفسير تجريب الكثير من الديانات أقرّ أمين أنه كان يحاول ببساطة أن يسبر أغوار الآخر المختلف دينيا. كان يرغب في الاكتشاف وفي التجربة. اقتنى الإنجيل والتوراة وقرأ كثيرا عن البوذية. قال لي مبتسما، تستطيعين أن تقولي عني «خرجت مالملة. منذ ذلك التاريخ لم أعد أعتبر نفسي مسلما».

كان صارما عقلانيا حتى في تعامله مع المختلف دينيا. حتى أنه يعتقد أن عبارة "اعتنقت أديانا جديدة" لا تتوافق كثيرا مع حالته. لقد كان ينشد التجربة فقط

لأجل التجربة. كان يريد أن يشعر بما يشعر به هذا الآخر في هذا الدين أو ذاك، كيف يفكر ؟ كيف يرى العالم ؟ لم يكن يروم غير الاكتشاف. كان يبحث عن الجانب الروحاني كذلك في كل رحلة جديدة مع دين جديد.

فيما يتعلق بمدى اندماجه في المجتمع الألماني وعن علاقاته وحياته الاجتماعية هناك، يقول محدثنا إنّ الألمان يخافون عموما من الآخر ويحاولون تجنبه قدر الإمكان ؛ ولكنه خوف مفهوم حسب رأيه نظرا لما يتسبب به هذا الآخر المختلف من متاعب في أغلب الأحيان. «حذرهم مرده الخوف لا غير، ليس تعاليا أو انغلاقا». يقول أمين إنهم للأسف محقون في ذلك، فأغلب أعمال العنف والاغتصاب والاعتداءات الإرهابية أبطالها عرب ومسلمون بالأساس. حتى أنه لو كان مكانهم لفعل نفس الشيء.

من حسن حظه أنه لم يحدث أن واجه التمييز أو الإقصاء بسبب أصوله وانتماءاته. حسب رأيه مكانته المجتمعية التي يحظى بها بسبب عمله هي التي تحميه.

لا يذكر أمين عن الإقصاء سوى حادثة بسيطة واجهها في بداية وصوله إلى ألمانيا. كان الطقس ممطرا حينها وكان في طريقه إلى العمل، فاحتمى بمدخل عمارة للتوقي من غزارة الأمطار التي كانت تهطل بقوة. فما كان من امرأة تقيم بإحدى الشقق هناك إلا أن صرخت في وجهه وطلبت منه التعجيل بالمغادرة إن لم يكن من سكان المبنى. صحيح أن رد فعلها جعله يشعر ببعض المهانة ولكنه يتفهم خوفها. كما أنه لا يستطيع أن يعمم ويتهم كل الألمان بالتعجرف والعنصرية.

السيدة التي يتسوغ منها البيت أصبحت صديقته مثلا. لقد زارها في بيتها عدة مرات كما ترافقا مرارا لتناول الطعام سوية. زملاؤه من الألمان في العمل تجمعه بهم علاقة طيبة كذلك. كما أنه يحاول أن يوسع من دائرة معارفه بإستمرار. «لا أريد لنفسي أن أكون أسيرا لما أحب أن أطلق عليه المجتمع الطبي». لذلك يحرص أمين على شرب القهوة بين الحين والحين مع صديق تونسي يعمل سائق حافلة في منشن. صحيح أنه لا يتقاسم معه أي مشترك فكري أو معرفي، ولكنه يستظرف شخصيته المرحة ويتمتع بقضاء الوقت برفقته.

حاول الانخراط في بعض الأنشطة الثقافية كذلك، فسجل بنادي المسرح في «فاسربورغ آم إن» وانتظر بشغف أولى مواعيد حصصه. ولكن للأسف،

لم يلتئم النادي لأن لا أحد سواه سجل فيه. المدينة صغيرة جدا وليس لأهلها أي اهتمام يذكر بالمسرح.

رغم ما لظروف نشأة أمين وتكوينه الفكري والثقافي ومساره الدراسي من تأثيرات في تصوراته للمستقبل وفي علاقته بالآخر وجعله منفتحا على كل احتمالات التغيير كالهجرة إلى أوطان أخرى. إلا أن لبعض الظروف الموضوعية تأثيرات كذلك في اتخاذ قراره بالمغادرة.

فماهي هذه الظروف وإلى أي مدى يمكن اعتبارها عاملا من العوامل المشجعة على الهجرة ؟

2. الظروف الموضوعية كدافع للهجرة

نستطيع أن نتبين من خلال شهادة مخاطبنا، إلى أي مدى لعبت ظروف التعليم الصعبة وندرة فرص العمل اللائق والاستغلال الذي يمارس على الأطباء الشبان دورا في تشجيعه على المضي في قرار الهجرة. كما أن مجموع التشجيعات وسياسة الترحيب بالمهاجرين المتبعة من قبل ألمانيا جعلته يختارها وجهة له، ويشرع في اتّباع الخطوات اللازمة لتفعيل ذلك.

1.2. نظام تعليمي مهترئ وظروف عمل قاسية

يعتقد أمين أنّ نظام التدريس في كلية الطب يحوي عديد الإخلالات. الأساتذة هناك يفتقرون إلى البيداغوجيا. كان على الطلبة أن يبذلوا الكثير من الجهد ليحصّلوا بمفردهم بعض المعارف التي لا تفي في أغلب الأحيان بالغرض. كما أن ظروف إجراء التربصات كانت رديئة. يقول أمين إنه قد ضاق ذرعا بالاستغلال الكبير الذي كان يمارس على الطلبة. كان لزاما عليهم أن ينصاعوا لما يمليه عليهم الأطباء وكانت أغلب طلباتهم متمثلة في أخذ نتائج التحاليل والفحوصات من قسم إلى آخر ومن مكتب طبيب إلى مكتب آخر. يعتقد امين أنهم كانوا يستخفون بهم. كان يشعر بالحنق الشديد تجاه ذلك. التربصات بالنسبة إليه مرحلة ضرورية ليتعلم من خلالها كيف يكون طبيبا. «وقتي أثمن من تمضيته في الركض بين أقسام المستشفيات. لدي الكثير لأفعله به، تونس كانت تستنزفني...».

حسب رأي مخاطبنا، لم تكن هناك جدية حقيقية لتكوين الأطباء في تونس. كانوا يعانون من النقص الفادح في طاقم الممرضين والعملة، مما اضطرهم إلى اللجوء إلى المتربصين لسد الفراغات بأزهد الأثمان. والأدهى أنهم كانوا يتعرضون إثر ذلك إلى محاسبة علمية صارمة على ما كان يجدر بهم تحصيله من معارف في تربصات لا تقدم شيئا.

كل شيء في الوطن كان يدفعه للهجرة. تونس لم توفر له الفرصة لتحصيل تكوين جيد ولا حتى ليحيا فيها بشكل يلائمه. لقد حاول أن يتأقلم ولو قليلا. حاول أن يدخل سوق الشغل وجرب حظه في عدة أماكن، ولكن دون فائدة.

بعد التخرج، كان عليه أن يشرع في رحلة البحث عن عمل. تمكّن في مرحلة أولى من العمل كمسؤول برامج طبية في إحدى الشركات التي تعنى بتنظيم المؤتمرات والملتقيات الطبية ؛ ولكنه سرعان ما غادره بسبب اعتباره عملا غير ملائم لمؤهلاته العلمية. اضطره ذلك للبقاء شهرا وبضعة أيام دون عمل. فقرر إثر ذلك النزول مع أسماء للبحث عن عمل، أين عثر عليه في مستشفى محلي بمدينة قبلاط من ولاية سليانة. "كان المستشفى بسيطا للغاية. زوز طواول وكرسي." ولكن نظرا لحاجته الماسة للعمل حينها اضطر للقبول به.

في مساء نفس اليوم سافر إلى مدينة جندوبة، أين عثر على عمل إضافي في مصحة خاصة هناك. في غضون بضعة أيام وجد نفسه يمارس العملين معا.

بعد شهرين وفّق أخيرا في العثور على عمل جديد في مصحة خاصة بمنطقة المنار من مدينة تونس. كان الأمر مبهجا بالنسبة إليه. على الأقل كان واثقا من أن الحد الأدنى من ظروف العمل اللائقة سيكون متوفرا. لم تكن تجربة العمل في الجهات الداخلية سهلة عليه. لقد اضطر لمغادرة المستشفى المحلي بقبلاط بعد مدة وجيزة. كل وسائل العمل كانت مفقودة هناك. لم يتحمل رداءة الأوضاع. كان يشعر بالعجز أمام جحافل المرضى التي تصطف أمامه كل يوم دون أن يملك حتى الأدوات اللازمة للكشف عنهم. أصبح يشعر أنه يتحمل مسؤولية فشل لا ذنب له فيه. كان يشعر أنه يساهم بصمته في جريمة كبرى، حتى اعتبر نفسه جزءا من مسرحية رديئة بطلها دولة توهم الناس زورا بأنها توفر لهم الصحة. "لم

أكن سوى جزء من الديكور الضروري لجعل الحيلة تنطلي على الأهالي هناك. فقررت المغادرة."

في المصحات الخاصة كانت ظروف العمل أفضل مقارنة بالمستشفيات العمومية، رغم أن الأجور كانت زهيدة مقارنة بحجم الجهد المبذول وعدد ساعات العمل يوميا. غير أن هذا لا يمنع أن مستوى جودة الخدمات نفسها كان يتفاوت من مصحة إلى أخرى. في جندوبة مثلا كان لزاما عليه أن يرسل مرضاه في كل مرة إلى مخابر خارجية لإجراء فحوصات الأشعة المقطعية والرنين المغناطيسي. فالمصحة ببساطة لا تمتلك المعدات اللازمة لإجرائها. كما كان يضطر لتوجيههم إلى المستشفى الجهوي في بعض الأحيان لعدم توفر أطباء الاختصاص. لم يكن الامر يسيرا. فقد كان مضطرا لمواجهة رفض الأهالي. كانوا يخشون من أن يتم فحصهم من قبل أطباء صينيين لا يثقون في مهاراتهم.

اكتشف أمين حينها حجم البؤس الذي ينخر منظومة الصحة في تونس. لهذا وغيره أخذت الرغبة في الهروب من هذا الجحيم تتنامى في داخله يوما بعد يوم. "في الحقيقة لقد مثلت الهجرة بالنسبة لي حلما قديما، لم تدفع الأسباب التي سردتها عليك سوى إلى إذكائه."

من أبرز العوامل الأخرى التي شجعت مخاطبنا على الهجرة، الخيبة التي أصابته بعد الثورة. فقد تحمس كثيرا لها وانخرط فيها بكل جوارحه. كان يظن أنّ التونسيين قادرون فعلا على التغيير. لقد كان في الصفوف الأمامية بين المتظاهرين أمام وزارة الداخلية يوم 14 جانفي. ولكن للأسف، كانت خيبته كبيرة نتيجة للأوضاع الرديئة التي ما فتئت البلاد تغرق فيها يوما بعد يوم. حاول أن يصالح نفسه مع فكرة الوطن. شعر تجاهه ببعض الحب في 2011. لقد عاين وعيا كبيرا وحجم التزام مشرف عند بعض الشباب في تلك الفترة ولكنه أدرك فيما بعد أنهم لم يكونوا سوى استثناء. "حسب رأيي، لقد جسد الحراك الثوري في تلك الفترة لحظة وعي لأقلية من الشباب المثقف الذين فشلوا في استلام السلطة".

بدا لنا أن أمين ممزق بين غيرة حقيقية على وطن يحاول أن يتحرر منه وينكر محبته له وبين توق إلى حياة أفضل في بلد يوفر ظروف عيش كريم.

2.2. رحلة الوصول إلى ألمانيا

يقول محدثنا بأن البداية كانت عبر مجموعة افتراضية على شبكات التواصل الاجتماعي تدعى «أطباء تونسيون في ألمانيا»، يتقاسم روادها فيما بينهم تجاربهم، كيف غادروا، ما الخطوات المتبعة، كيف كان استقرارهم في ألمانيا، ما ينصحون به وما يحذرون منه..

في البداية أرسل إلى الحكومة الفدرالية في بايرن مطلب إقامة وأرفقه بالوثائق اللازمة. لقد تطلب الأمر منه الكثير من الجهد والتعب. إجراءاتهم معقدة. كان عليه ترجمة كل الوثائق إلى الألمانية وفي ألمانيا بالذات، فهم لا يثقون بغير ترجمتهم. إنهم شديدو الحذر.

لتخفيف حدة التكاليف، نصحه بعض الأصدقاء بترجمة الوثائق في تونس ثم إرسالها إلى ألمانيا للمصادقة عليها. تطلب هذا الخيار مجهودا أكبر ولكنه كان الأنسب للضغط على المصاريف. لم يكن لأمين من الترف ما يسمح له بسلوك أيسر السبل.

شرع أمين في إعداد ملف الهجرة في نهاية شهر جويلية من سنة 2017. كان قد اتخذ قرارا قاطعا بالمغادرة مع حلول نهاية 2017، و قد نجح في تحقيق ذلك. وصله بعد مدة وجيزة رد من حكومة بايرن يطلبون فيه إتمام بعض الوثائق الناقصة. كان هناك الكثير من الأخذ والرد قبل الانتهاء من تجهيز الملف كاملا. إثر ذلك، كان عليه انتظار أن تتم دعوته إلى اجتياز امتحان اللغة من قبل عمادة الأطباء الألمانية، في حال قبول ملفه. في خضم كل هذا تم رفض مطلب التأشيرة الذي تقدم به إلى السفارة الألمانية في تونس. لم يكن هناك سبب واضح لرفضه. طلبوا منه أن يستظهر بموعد إجراء اختبار اللغة في ألمانيا الذي لم يتحصل عليه بعد. «ماذا كانوا يريدون مني فعله ؟ من أين سأجلبه لهم ؟ كان تعنتا مجانيا.» من سوء حظ أمين أن تزامنت تلك الفترة مع سلسلة من التفجيرات التي هزت العاصمة برلين.

على عكس ما دأب الناس عليه، استخدم أمين حينها حقه في تقديم مطلب اعتراض. «للأسف لا يعلم الكثيرون ذلك ويضطرون إلى إيداع ملف طلب تأشيرة جديد مع ما يتطلبه ذلك من مصاريف جديدة». استشهد أمين في مطلب

الاعتراض بالقوانين الألمانية التي تدعم حقه في التنقل وفي الهجرة إليها. «أظنني قد أحرجتهم».

بعد بضعة أيام وصله منهم رد بضرورة إرفاق الملف بالوثيقة الناقصة فقط، مما سمح له بالحصول على الدعوة في غضون بضعة أيام. استخرج أمين إثر ذلك نسخة منها وأخذها بنفسه إلى مبنى السفارة، ثم أرسل إلى الموظفة التي يتعامل معها عبر البريد الإلكتروني ليعلمها بالأمر، ففاجأته بقولها بأنها لم تحصل على أية وثيقة.

فهم أمين بعد ذلك بأن الموظف التونسي تعمد إتلاف وثيقته. لقد أقسم له منذ البداية بأن مطلب تأشيرته سيرفض. «هكذا مجانا ودون أن أطلب رأيه أخذ في استعراض عضلاته. تجاهلته وأقسمت له بأني سأقبل. يبدو بأن مطلب اعترضه لم يرقه».

تحصل أمين بعد أيام قليلة على الفيزا، بعد أن اضطر إلى إرسال الدعوة عبر البريد الإلكتروني لموظفة السفارة. و تمكّن أخيرا من المغادرة قبل موفى شهر ديسمبر.

لقد ربح قضيته...

في بداية وصوله إلى ألمانيا كانت ظروف الإقامة صعبة قليلا. أقام في الفترة الأولى في نزل بسيط وحصل على غرفة مشتركة مع ستة أشخاص. كان الأمر صعبا عليه. بعد ذلك، غادر هذا السكن الجماعي إلى غرفة استأجرها من سيدة ألمانية، أقام في بيتها رفقة فتاة رومانية. كانت صاحبة المنزل تزور بيتها في عطلة نهاية الأسبوع.

لتخفيض تكلفة الكراء، اقترحت عليه صاحبة المنزل أن يرعى ابنتها الصغيرة و لكن أمين رفض المقترح بشكل قطعي. رعاية الأطفال مسؤولية ثقيلة ليس مستعدا لتحملها. رغم أن أعباء الكراء كانت تثقل كاهله. لقد كان مضطرا إلى دفع خمسمائة أورو شهريا.

بعد مدة لم يعد قادرا على تحمل هذا العبء المادي، فانتقل للإقامة عند صديق تعرف إليه في دورات اللغة. كان لاجئا عراقيا. ثم سافر عند أخته في

فرنسا وعاد بعد مدة قصيرة إلى ألمانيا أين أقام هذه المرة عند صديق سوري. كان عليه أن يضغط على المصاريف قدر الإمكان.

فور وصوله إلى ألمانيا، سجّل أمين في دورة تكوينية مكثفة في اللغة الطبية الألمانية بمنشن. واظب على الحضور بشكل يومي من الساعة التاسعة صباحا إلى الساعة الثانية من مساء كل يوم. كان عليه اجتياز اختبار اللغة بنجاح، بدونه لا يمكن له أن يعثر على عمل. كان الاختبار عبارة عن امتحان لتقييم مستوى إتقان المصطلحات الطبية باللغة الألمانية من قبل الأجانب. ولكنه يضحي أكثر تعقيدا عندما يجتازه الأطباء القادمون من دول العالم الثالث. «الجميع يقول إنّ اللجنة تضحي أقل تشددا مع الطبيبات القادمات من أوروبا الشرقية بالذات. حتى الإحصائيات تثبت هذا». يرجع أمين أسباب هذا السلوك إلى اعتقاد الألمان أولا أن الفتيات أقل ميلا إلى العنف من الفتيان، ثانيا فهم يظنون بأن شباب أوروبا الشرقية أقل عنفا من الشباب القادم من سوريا أو العراق أو حتى من تونس.

يقول أمين إن اجتياز الامتحان يكون شفاهيا أمام لجنة مكونة من مجموعة من الأطباء وأساتذة اللغة. يعاين المترشح مريضا أمامهم ثم يكتب رسالة يشرح فيها تشخيصه للحالة والعلاج الذي يقترحه. ليقيموه إثر ذلك ويقرروا رسوبه في أغلب الأحيان. كان من المفترض أن يجتاز هذا الاختبار فور وصوله إلى ألمانيا ولكنه اختار تأجيل الموعد إلى حين تحصيل مستوى جيد من دروس اللغة. «لم أكن جاهزا إطلاقا ولم أكن مستعدا لخسارة فرصتي في النجاح. من المهم أن يحسن المرء تقدير إمكانياته الذاتية في هذه الحياة». تكلفة إجراء الامتحان مرتفعة كذلك. لم يكن أمين مستعدا لإلقاء 400 أورو من النافذة. اضطر في الأثناء إلى السفر إلى فرنسا للإقامة عند أخته. كان عليه أن يضغط على المصاريف.

في خضم كل ذاك حرص أمين على الخضوع إلى تربص في فرنسا حتى لا يهدر وقته.

تمكن أمين أخيرا من اجتياز اختبار اللغة بنجاح في شهر سبتمبر من نفس السنة. فتحسّنت أموره تدريجيا، خاصة بعد عثوره على عمل. ولكنه كان مضطرا لإجراء اختبار ثان، أكثر دقة بعد مدة وجيزة، حتى يتمكن من الحصول على المعادلة الطبية الكاملة ويصبح طبيبا معترفا به في كامل ألمانيا متمتعا بالحق

في الإقامة الدائمة والعمل في أي مكان فيها. "الاختبار الأول الذي اجتزته كان محددا بمدة سنتين فقط، كما أنه لا يسمح لي بالعمل إلا في منشن. الحمد الله أني اجتزت الاختبار الثاني بنجاح أيضا."

يبيّن لنا إصرار أمين على المغادرة بسبب الظروف التعليمية والمهنية الصعبة وتجاوزه لكل الصعوبات التي واجهت رحلته للاستقرار في ألمانيا أننا أمام شخصية ترفض الانصياع لأي نوع من أنواع القيود وتصر على التحرر منها والتغيير مهما كلفها ذلك من جهد.

فإلى أي مدى يمكن اعتبار الرغبة في التحرر عاملا من العوامل المشجعة على الهجرة ؟

3. التحرر هو معنى الوجود

رغم الأثر الكبير والمباشر لظروف التكوين و العمل الصعبة في تونس على قرار مخاطبنا بالهجرة إلى ألمانيا، إلا أن شخصيته التي تتصف بتوق إلى التحرر من كل ما يقيده كالمؤسسات أو الحدود الجغرافية أثرت كذلك في دفعه إلى هذا القرار. فالهجرة بالنسبة إليه هي تجربة جديدة ومختلفة يبحث من خلالها عن معنى وجوده.

1.3. الهجرة رحلة للبحث عن المعنى

مثلت ألمانيا بالنسبة إلى أمين حلما قديما. كان معجبا بثقافتها منذ سنوات الشباب الأولى. لذلك اختار تعلم الألمانية في المعهد لغة اختيارية، رغم أن زملاءه حذروه حينها من صعوبتها ومن قواعدها اللغوية المعقدة. لقد كان متأثرا بنيتشه وبالفلسفة الألمانية. غير أنه لم يكن قد خطط في تلك الفترة لبرنامج هجرة حقيقي. لو وجد الحياة التي يحلم بها في تونس والمعنى الذي ينشده ربما لم يكن ليغادر.

يقول مخاطبنا بأن مفهوم السعادة عنده نيتشوي بالأساس، لذلك فهو حريص على التسلح بالقوة والصحة والعلم والثروة. الحياة معركة وعليه أن ينتزع منها حقه في أن يحيا بسعادة انتزاعا. لقد مثلت الهجرة إلى ألمانيا بالنسبة إليه إحدى اوجه هذه المعركة. التحرر من قيود الوطن والانتماء ليس بالأمر اليسير. و لكن ليس لشيء أن يقيد رغبته في البحث عن معنى جديد ومختلف لحياته. الهجرة في إحدى تجلياتها هي محاولة للبحث عن المعنى...

في الفترة الأخيرة من سنوات الدراسة، تناهت إلى مسامعه أخبار الكثير من الزملاء الذين هاجروا إلى ألمانيا. سمع أمين عن التشجيعات والتسهيلات التي كانت تخص بهم الحكومة الألمانية الأطباء التونسيين حتى يهاجروا إليها، فأذكى فيه ذلك حلم الطفولة القديم...

صحيح أن مشروع الهجرة إلى ألمانيا لم يكن سوى فكرة محببة إلى قلبه منذ سنوات المعهد ولم يمثل هاجسا حقيقيا يشغله إلى درجة أن يحارب من أجله. ولكن جحافل الأصدقاء التي أخذت تغادر بنسق مرتفع منذ سنة 2014[8] جعلت الحلم القديم يطفو إلى السطح ويبدو سهل التحقيق. لقد قال لنفسه إنّ ألمانيا من الممكن أن تكون خيارا ممتازا. فمقارنة بفرنسا مثلا، الوجهة المفضلة تاريخيا للتونسيين، يستطيع الطبيب الأجنبي في ألمانيا تحصيل نفس أجر الطبيب الألماني. خلافا لفرنسا التي يتلقى فيها الأطباء التونسيون أجورا أدنى من نظرائهم الفرنسيين فقط لأنهم أجانب. كما أن الامتحانات التي تسمح إثر اجتيازها بالحصول على المعادلة أسهل. صحيح أن المسألة بدأت تتعقد أكثر فأكثر في الفترة الأخيرة ولكنها تبقى دوما أفضل من فرنسا. تتبع الحكومة في ألمانيا منذ سنة 2011 ما يطلقون عليه سياسة الترحيب بالأجانب بسبب النقص الفادح الذي تعاني منه في مختلف القطاعات على مستوى الفئة المنتجة، خاصة على مستوى المشافي التي تعاني نقصا حادا في عدد الأطباء. يوعز أمين هذا النقص في عدد الأطباء بالذات عندهم إلى نظامهم التعليمي المعقد، إذ أنه لا يسمح إلا بتخرج النزر القليل منهم. كما

[8] حسب الدكتور منير يوسف مقني، رئيس المجلس الوطني لعمادة الأطباء، اعتمدت العمادة لتقدير نسبة هجرة الأطباء التونسيين في الفترة الأخيرة في ظل غياب سجل وطني لرصد هذه النسب على احتساب عدد شهادات حسن السيرة المسلمة للأطباء بطلب منهم قصد الاستظهار بها لدى السلط المعنية بالبلدان المستضيفة قبل الترخيص لهم بالعمل هناك. وقد ارتفع عدد الشهادات المسلمة للغرض على امتداد خمس سنوات في الفترة الممتدة بين 2013 و2017 من 58 شهادة مقابل 926 ترسيما جديدا بجدول العمادة مما يمثل نسبة 6٪ في حين وصل عدد شهادات حسن السيرة 435 في سنة 2017 مقابل 1000 ترسيم جديد ممّا يمثل 43٪. أنظر «منير يوسف مقني: هجرة الأطباء التونسيين، أرقام مذهلة» ليدرز العربية. 2018https://ar.leaders.com.tn/article/2647-%D9%85%D9%86%D9%8A%D8%B1-__27-01%D9%8A%D9%88%D8%B3%D9%81-%D9%85%D9%82%D9%86%D9%8A-%D9%87%D8%AC%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B7%D8%A8%-8%A7%D8%A1-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%88%D9%86%D8%B3%D9%8A%D9%8A%D9%86-%D8%A3%D8%B1%D9%82%D9%80%D8%A7%D9%85-%D9%85%D9%80%D8%B0%D9%87%D9%80%D9%84%D8%A9 مراجعة على الانترنت بتاريخ 2019-11-18

أن هؤلاء القلة من الناجحين يرفضون بدورهم العمل بدوام كامل إثر التخرج. "في الحقيقة هم ليسوا في حاجة إلى العمل بدوام كامل. فمستوى أجورهم مرتفع كما أنهم ينتمون في أغلبهم إلى أسر مرفهة مما يجعلهم في غنى عن التفكير في تحصيل بيت وسيارة." على عكس الأطباء الأجانب الذين يعملون بدوام كامل، بل ويضطرون في أغلب الأحيان إلى العمل لساعات إضافية.

اقترح بعض الزملاء على أمين الاشتراك في فتح عيادة خاصة. زوجته كذلك شجعته بقوة على المضي في هذه الفكرة. فهي لم تكن متحمسة لفكرة الهجرة وهو يتفهم موقفها بشكل جيد. "كان من الساذج توقع تأييدها للفكرة، فهي مستقرة في عمل تحبه ولديها الكثير من الأصدقاء. ولكني كنت قد ضقت ذرعا حينها بوضعية البلاد".

يعتبر أمين أن الوضع أضحى خانقا في تونس في السنوات الأخيرة، فالاقتصاد كان في انهيار مستمر. والمواطنون أصبحوا أكثر عنفا وتشنجا تجاه الأطباء. حتى أنه أصبح يشعر بعدم الأمان. "لماذا علي أن أقضي زهرة شبابي في هذه الاجواء المتوترة. تونس بالنسبة إلي أصبحت بلدا لا يصلح للعيش". لقد كان واثقا من أن حياة أفضل تنتظره خلف هذه الحدود. ما دام لم يعثر على ظروف عيش ملائمة في تونس، من البديهي بالنسبة له أن يبحث عن ظروف عيش أفضل في مكان آخر. التعلق بالوطن لا يعني له شيئا. "الأمر حقا بهذه البساطة بالنسبة إليّ". فهو يرفض بشكل قطعي أن يدفع ثمن البؤس الذي تغرق فيه البلاد. إذا كان الجميع مستقيلا فلماذا عليه ان يتحمل بمفرده تبعات هذا الفشل. "هذه البطولات الوهمية والملاحم الوجدانية لا تعني لي شيئا. لا أريد أن أقاوم لأجل أحد. أريد فقط أن أحيا بشكل جيد".

2.3. التحفظ على المؤسسات ورفض القيود

في حياته الخاصة، يحمل أمين الكثير من التحفظات على مؤسسة الزواج. إذ يعتقد أنها مؤسسة مقيدة ومفروضة على الأفراد قسرا. هو لا يفهم لم عليه أن يخضع لعادات وأعراف لم يكن له دخل في وضعها. ولكنه لم يصمد طويلا وأذعن في النهاية لضغوطات المجتمع. لقد تردد كثيرا هو وزوجته أسماء قبل أن يتخذا قرار الزواج. حبهما أكبر من الزواج نفسه. بالنسبة إليهما هو مجرد حدث اجتماعي كان لا بد من المرور به. فكان زواجهما يوم 19 مارس 2016.

تعتبر علاقة مخاطبنا بزوجته مميزة نوعا ما. فهي ثمرة لصداقة عميقة امتدت لسنوات طويلة قبل أن تتوج بالزواج. تعرف أمين إلى أسماء في المسرح. كان بصدد إلقاء الشعر على الركح عندما لاحظت وجوده. يبدو أنه قد وقع في نفسها منذ ذلك الحين حسب تعبيره. توطدت علاقتهما بمرور الوقت وأصبحا يرتادان الكثير من العروض الثقافية معا. كانا يقضيان الكثير من الوقت الممتع معا. يخرجان إلى المقاهي ويتسكعان سوية في الشوارع والأزقة.

يقول أمين إنّ من بين الأسباب التي جعلته يتردد قليلا قبل الإقدام على تجربة الزواج كذلك، الرغبة الكبيرة التي كانت تحدوه في السفر إلى ألمانيا. كان قد ادخر جزءا كبيرا من الأموال التي تحصل عليها أثناء سنوات عمله الأولى وهو طبيب مقيم في المستشفيات التونسية ليتمكن من الهجرة. "لولا أن لسلطان القلوب علينا سطوة. حبي لأسماء جعلني أؤجل برنامج الهجرة قليلا. اضطرني هذا القرار إلى إنفاق كل ما أملك على مصاريف الزواج، فوطنت النفس على جمع المال مجددا وعلى السفر في وقت لاحق".

في المقابل، شجعته أمه كثيرا على خوض هذه التجربة. لقد باعت كل مصوغها لأجله. كان يحتاج المال فضحت به والدته من أجله رغم أنه يعني لها الكثير، ذكرى زواجها الذي مضى عليه أكثر من ثلاثين عاما. فهي لا تريد من الدنيا سوى أن يكون إبنها سعيدا و يحقق ما يصبو إليه.

"صحيح أني أشتاق أسماء ولكني أمني النفس بأنها فترة و ستمضي. هكذا هي البدايات دوما، لا بد من تقديم بعض التضحيات." يقول أمين إنّ الوحدة في ألمانيا قاسية. إذ أنه يشتاق إلى الأوقات الممتعة التي كان يقضيها مع زوجته. "أشتاق إلى أن تملأ علي حياتي مجددا. أشتاق حتى إلى خصوماتنا. لم يكن ترك زوجتي ورائي في تونس هينا علي." يمني أمين نفسه بقرب اللقاء، فهو يجهز نفسه لاستقبالها في غضون بضعة اسابيع، لتقضي معه بعض الوقت في انتظار أن يجهز ملفها و تلتحق به للاستقرار نهائيا في ألمانيا.

يحمل أمين الكثير من التحفظات على المؤسسة الدينية كذلك. بعد وصوله إلى ألمانيا، أصبحت جل تدويناته على مواقع التواصل الاجتماعي مخصصة للخوض في الشأن الديني. لقد أضحى يكتب بكل جرأة عن المقدس. ينقد الأحكام الفقهية

ويعود إلى التاريخ الإسلامي لينبش فيه و يقدم قراءته النقدية لبعض الروايات. ببساطة، أصبح يشعر بحرية أكبر في ألمانيا. في تونس كان يكتم الكثير تجنبا لصداع الرأس وللصراعات المجانية مع المحيطين به. في ألمانيا، لم يعد يبالي بذلك. لم يعد يعنيه أن يغضب أصدقاؤه و أقاربه أو حتى أن يقطعوا علاقتهم به.

بعد انقضاء الفترة الأولى من استقراره في ألمانيا، لم تعد المسألة الدينية أولوية بالنسبة إليه. خفت وتيرة اهتمامه بها وأصبح أكثر انشغالا بعمله الذي يستهلك جل وقته. في ألمانيا لا أحد يهتم بما تؤمن به. أنت حر في إيمانك من عدمه. هذا جانب مهم للغاية بالنسبة إليه. فمن أسباب مغادرته لتونس تلك القيود التي كان يفرضها عليه المجتمع في هذا الصدد. كان يشعر بأنه مقيد هناك. "أذكر أن السلطات اعتقلت العام الفارط مجموعة من الشبان، فقط لأنهم جاهروا بإفطارهم في رمضان. أي تخلف وأي تعصب هو ذاك الذي تغرق فيه البلد ؟"

تعتبر مسألة الحريات أولوية بالنسبة إلى مخاطبنا و عدم توفرها بالقدر الكافي في تونس ساهم في دفعه إلى مغادرتها للبحث عن أفق أرحب. كما أن شخصيته التي تتميز برغبة جارفة في اكتشاف المختلف و تحقق متعتها بخوض تجارب جديدة أثرت كذلك في هذا القرار.

فهل يمكن تفسير ظاهرة الهجرة بالرغبة في الاكتشاف وحب المغامرة ؟

4. الملل محركا للتجربة

ليس البحث عن المعنى فقط في التجارب الجديدة ما يميز شخصية مخاطبنا، ولكن الشعور الدائم بالملل الذي يلازمه والرغبة في التجديد كان محركا لخوض تجارب جديدة بغرض الاكتشاف وتجاوز هذا الشعور. تعتبر تجربة الهجرة إلى ألمانيا إحدى أوجه هذه المحاولات.

1.4. الهجرة كتجربة لاكتشاف الجديد

يقول أمين إنه تفوق بسهولة في اجتياز امتحان الباكالوريا وتمكن من تحصيل الرصيد الذي سمح له بالولوج إلى كلية الطب في تونس العاصمة. أين واجه هذه المرة الكثير من المتاعب والصعوبات.

لم تكن رحلته مع الطب يسيرة. لقد تعثر مرارا وعرف الفشل لأول مرة في حياته. مرت سنته الأولى بسلام ولكنه واجه فيما بعد بعض الصعوبات. صحيح أنه لم يواجه الرسوب ولكنه كان مضطرا دوما إلى المرورر بدورة المراقبة للارتقاء من سنة إلى أخرى كما كان عليه إعادة بعض التربصات. «لقد وجدتني أغادر منطقة الأمان مجددا».

كما أنه لم يعد راغبا في التميز. نعم، لقد قرر هكذا وبكل بساطة أن يخوض تجربة الفشل. ربما يبدو لنا الأمر غريبا و لكن مخاطبنا يؤكد على جديته. «مللت من النجاحات المتكررة. بدا لي أني بلغت من العمر الكثير دون تجربة شعور الفشل، فقررت خوض التجربة».

يقول أمين إنه خلافا لما يشاع من أن الأطباء يفضلون في العادة أن يرتبطوا بمن تقاسمهم نفس المهنة، فقد اختار ان يتزوج من مهندسة بيولوجية. لم يكن متحمسا لفكرة الزواج من نفس مهنته لأنه كان راغبا في أن يكتشف مع زوجته أفكارا جديدة مرتبطة بتخصصها العلمي. أراد تجربة شيء مختلف وجديد يستطيع بفضله الترويح عن نفسه. «أكره الرتابة كما أني سريع الملل وقد مللت الطب». يؤمن أمين دوما أنّ كل اختصاص جديد هو نافذة أخرى تفتح له على العالم، وقد وجد هذا مع أسماء، أحيانا بشكل إيجابي وأحيانا بشكل سلبي حسب قوله.

2.4. كل رحلة جديدة هي أفق روحي جديد

يقول أمين إنه لا يفكر إطلاقا في إنجاب الأطفال، إذ أنه لا يتحمل أن يضطر للعناية بإنسان آخر لمدة عشرين عاما على الأقل. «سيرهقونني كثيرا، الحياة قصيرة للغاية. يجب أن أتمتع بها قدر الإمكان لا أن أخصصها للعناية بإنسان آخر». يظن أمين أن الرغبة في الإنجاب هي مجرد استجابة لغريزة بدائية للتكاثر لأجل التكاثر. هو لا يرغب في إضافة طفل آخر إلى هذا العالم التعيس. كما أنه يظن بأن إنجاب الأطفال أمر ممل. ما يعنيه أن يكون فقط مرتاحا. ولكن إن حدث وأنجب أطفالا فمن المهم أن يحرص على راحتهم و على تمتعهم بالحرية الكاملة. مثلا من حقهم أن يستقروا في أي مكان يريحهم في هذا العالم كما لا يعنيه بالمرة أن يرتبطوا بتونس. «أنا أصلا لست مرتبطا بها فلماذا سأحرص

على جعلهم يرتبطون بها. ثم دعيني أسألك ماهي تونس أصلا أليست مجرد قطعة أرض في هذا العالم اتفق أهلها على تسميتها تونس ؟»

أما عن طموحاته في ألمانيا وإلى أي مدى هو بصدد تحقيقها فيعتقد أمين أنه راض عموما عما بلغه وحققه من نجاحات في فترة تواجده البسيطة في ألمانيا. لقد عثر على عمل محترم في اختصاصه وتحصل على إقامة دائمة. كما أن زوجته ستلتحق به بعد إتمام بعض الالتزامات في تونس. لم يبق له سوى اقتناء سيارة في أقرب الآجال. النقل ليس متوفرا بالشكل الكافي في "فاسربورغ آم إن". توجد حافلة واحدة تستطيع أن تنقله إلى عمله لا تتوفر إلا على رأس كل ساعة.

ولكن أحلامه تتطور باستمرار. ألمانيا ليست قدره. يفكر أمين في الهجرة بعد بضع سنوات إلى سويسرا. تغريه فكرة العمل في مستشفياتها. يقول إنه سيسعى إلى تحقيق هذا الهدف في السنوات الخمسة القادمة. في تونس كان يحلم بالهجرة إلى ألمانيا، والآن هو في ألمانيا ؛ عليه أن يحلم بشيء آخر إذن. بعد ذلك ربما يهاجر مجددا إلى أمريكا. ليس واثقا من رغبته هذه ولكن من يدري. لكن نجده واثقا من رغبته في قضاء السنوات التي تلي حصوله على التقاعد في الهند. "الأكيد أنك تتساءلين الآن عن سبب إختياري للهند. أفهم استغرابك و لكني أضحي أحيانا غريب الأطوار". يقول أمين إنه طالما حلم بالموت في الهند بسبب رغبته في قضاء سنواته الأخيرة في مكان بسيط مليء بالروحانيات وخال من التعقيد. يبدو أمين واثقا من أنه سيجد في الهند ضالته. أما عن احتمال العودة إلى تونس مستقبلا فهذا غير وارد أبدا بالنسبة إليه. "لقد عشت فيها حوالي ثلاثين عاما. ما الذي سأكتشفه فيها مجددا ؟".

الخاتمة

نستطيع ان نستخلص إذا من خلال هذا البورتريه أن الإجابات الكلاسيكية عن أسباب هجرة الكفاءات في تونس ودواعيها لا تستقيم دوما وأن لكل تجربة خصوصيتها. لذلك من المهم أن نولي هذه التجارب الاجتماعية ما تستحقه من اهتمام بالوصف والتحليل والدراسة. فالرحلة الخاصة لكل فرد تحوي بين طياتها

طريقة تفكير مختلفة ورؤية خاصة ومتفردة للعالم[9]. من خلال تجربة الشاب أمين تبدو لنا الهجرة في إحدى تجلياتها رحلة الذات التي تسعى بنهم إلى لقاء الآخر المجهول. فهي بحث مستمر عن المعنى وعن الذات في هذا المجهول وسعي منه لترتيب حياته على وقعها. الهجرة بالنسبة إلى أمين هي مشروع حياة ينظم من خلاله معنى الماضي يرتب به حاضره ويستشرف المستقبل.

غير أن لعدة عوامل موضوعية دورا كذلك في دفع الكفاءات التونسية من الأطباء للمغادرة والبحث عن فرص عمل وتكوين وعيش أفضل في دول المهجر. من أبرزها ظروف التكوين الصعبة التي يتعرض لها الأطباء الشبان خاصة عند إجراء التربصات. إضافة إلى قلة فرص العمل والاستغلال المادي الذي يتعرضون له في المصحات الخاصة واهتراء منظومة الصحة العمومية وعدم توفر الحد الأدنى من شروط العمل اللائق في المستشفيات المحلية والجهوية. إلى جانب مناخ العنف والتوتر وتشنجات المواطنين التي يتعرض لها الأطباء.

كما أدى مناخ عدم الاستقرار السياسي الذي عرفته تونس في السنوات الأخيرة إلى تعميق الأزمة، إذ طغت التجاذبات السياسية على المشهد ولم تقدم سلطة الإشراف على الإصلاحات الضرورية لإنقاذ منظومة الصحة وتحسين ظروف عمل الأطباء التونسيين. تزامن كل هذه الظروف التشجيعات التي تقدمها الحكومة الألمانية للأطباء الأجانب للالتحاق بمستشفياتها والاستقرار نهائيا بها أدى إلى الارتفاع غير المسبوق في نسبة الأطباء المهاجرين إلى ألمانيا.

المراجع

Brumelot Olivier, â â Gtoyens du monde□de Martha C. Nussbaum□, *Le Philosophoire*, 2006/2 (nç 27). DOI : 10.3917/phoir.027.0227. URL : https://www.cairn.info/revue-le-philosophoire-2006-2-page-227.htm

Diog´ne LAERCE, *Vies, doctrines et sentences des philosophes illustres* 3DULV / *) &LW SDU%UXP HORW2 OMH-U dd&LWR HQVGX

[9] François Dubet، *Sociologie de l'expérience*، Paris، Editions du seuil، Février 2016.

monde□de Martha C. Nussbaum□, *Le Philosophoire*, 2006/2 (nç 27), p. 227-249. DOI : 10.3917/phoir.027.0227. URL : https://www.cairn.info/ UHYXH OHSKLORVRSKRLH SDJH KWP FRQVXOWOH

Dubet Fran´ois, *6RFLRORJLHGHOD S UHQFH*, Paris, Editions du Seuil, 2016.

* UDG9DOUH d (WHFWRU\HQGXP RQGH□, *Tumultes*, 2005/1 (nç 24). DOI : 10.3917/tumu.024.0013. URL : https://www.cairn.info/revue-WXPXOWH SDJH KWP FRQVXOWOH

5 XHGD$ P DQGD d' X SRWDWLWHQ P DWRJUDSKLXHGHFXPHQWDLUH au portrait en sciences de lêinformation et de la communication□, 6FLHQFHVGHOD VRFL W\ QQQQH@ | SXEOLOH GFHP EUH 2014, https://journals.openedition.org/sds/1226?lang=es#tocto1n2

«منير يوسف مقني : هجرة الأطباء التونسيين، أرقام مذهلة» ليدرز العربية. 01-27_2018 /https://ar.leaders.com.tn/article/2647-%D9%85%D9%86%D9%8A%D8%B1-%D9%8A%D9%88%D8%B3%D9%81-%D9%85%D9%82%D9%86%D9%8A-%D9%87%D8%AC%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B7%D8%A8%D-8%A7%D8%A1-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%88%D9%86%D8%B3%D9%8A%D9%8A%D9%86-%D8%A3%D8%B1%D9%82%D9%80%D8%A7%D9%85-%D9%85%D9%80%D8%B0%D9%87%D9%80%D9%84%D8%A9 مراجعة على الانترنت بتاريخ 18-11-2019

المسكيني فتحي، "المركزيون أو في المواطنة المشطة"، الحوار المتمدن، العدد 3977، 2019 http://www.ahewar.org/debat/s.asp?aid=341776 مراجعة على الانترنت يوم 25 سبتمبر

الكفاءات التونسية المتخصصة بين الموجود والمنشود[1]

صبرين الجلاصي[2]

مقدمة

ظاهرة هجرة الكفاءات من المواضيع التي باتت تثير الكثير من الجدل والحوار بل اصبحت محل مزايدات في الصراعات السياسية، وذلك لتأثيرها في برامج التنمية المستدامة في أوطاننا.

فهجرة الكفاءات جزء من عملية استنزاف العقول والقدرات من المجتمعات النامية الى المجتمعات المتقدمة التي تسعى دائما إلى تقديم الإغراءات لجذب اليد العاملة ذات التأهيل العالي، هذا دون اعتبار السلبيات الاجتماعية والثقافية والسياسية المترتبة عن هذا النوع من الهجرات خاصة أنه سلب للموارد البشرية للدول وهو ما يؤثر بدوره سلبا في تطور الاقتصاد القومي وعلى التركيب الهيكلي للسكان والقوى البشرية إذ أن هذه الفئة من المهاجرين هي التي يمكنها المساهمة في النهوض ببلدانها وتحقيق التقدم داخلها.

يعزو التقرير الأول للجامعة العربية تنامي هذه الظاهرة إلى تزايد القيود المفروضة على حرية ممارسة البحث العلمي والفكري الحر في أغلب الدول العربية، ما يترتب عليه شعور متزايد بالاغتراب للكفاءات العلمية والفكرية العربية داخل أوطانها وترقبها فرص الهجرة الى الخارج[3].

---

[1] أنجزت هذه الورقة تحت إشراف الأستاذة حليمة وناده في إطار ورشة الكتابة التي نظمتها جمعية تونس الفتاة مع منظمة «كونراد اديناور» ما بين شهري جويلية وسبتمبر 2019.

[2] طالبة دكتوراه وأستاذة متعاقدة بكلية صفاقس لها مقالات علمية منشورة وأخرى بصدد النشر كما انها باحثة متطوعة بمركز البحوث الاقتصادية والاجتماعية بتونس.

[3] مقال تحليلي تحت عنوان «ما السبيل إلى الحد من ظاهرة هجرة العقول والأدمغة من العالم العربي؟» منشور على موقع الجزيرة نت 155 أيلول سبتمبر 2016 انظر : https://upls.fr/IMG/pdf/x-ens-espci__2017__arabe.pdf

وتونس ليست بمنأى عن ركب هذه الظاهرة، فحسب الإحصائيات الرسمية سّجلت هجرة ما يقارب 15 ألفا من الكفاءات التونسية منذ بداية 2018، و"بحسب أرقام مكتب التونسيين في الخارج للفترة الممتدة من جانفي إلى أوت 2018، فإن 14 ألفا و250 متخصصين معلنين قد هاجروا من تونس نحو وجهات خارجية مختلفة"[4].

وبيّن نفس المصدر إن المهن التي تشارك في هذا النزوح الاستنزافي هي من كبار المديرين (8200)، التعليم (2300)، المهندسين (2300) والأطباء (630) وعلماء الكمبيوتر (450) والصيادلة (370).

أما بالنسبة إلى دول الاستقطاب فعادة ما تكون "فرنسا، ألمانيا، كندا، أو دول التعاون الخليجي".

والحقيقة أن هذه الظاهرة باتت تمثل عائقا فعليا أمام التنمية الشاملة التي تسعى دول المنطقة إلى تحقيقها في صلب مجتمعاتها، لكن تبقى الأوضاع الوطنية هي الإشكال الفعلي لتحفيز تنامي هذا التهجير، والإشكالية الحقيقية هي في عوامل الجذب التي تتسم بالسخاء و الإغراء المادي أولا، والمعرفي والعلمي ثانيا، وعلى هذا الأساس يمكن طرح جملة من الأسئلة الجوهرية التي من شأنها أن توجه التفكير حول هذه المسألة :

هل أنّ البحث عن تقدير الذات هو دافع فعلي للهجرة ؟ كيف يكون عدم الرضا سبيلا إلى تغير مسار الحياة ؟

والى أي مدى يمكن اعتبار المهجر أنموذجا للاستقرار ؟

ولتناول هذا الموضوع بالدرس فإننا سنعتمد على نموذج بحثي استنادا إلى منهج دراسة الحالة وتقنية المقابلة المفتوحة، والتي من خلالها سنستجلي بعض التفاصيل حول تجربة محاورنا والتي بدأت تحدّيا في وطنه لتصل به الظروف الى درجة البحث عن الاعتراف بذاته المتميزة في وسطه المهني مما خلق

[4] عمار قردود، «94 ألف كفاءة غادرت تونس في ظرف 6 سنوات و15 منذ بداية 2018، مقال على موقع anbaa-tounes/29/10/2018/ انظر :

http://www.kapitalis.com/anbaa-tounes/2018/10/29/94-

حالة من عدم الرضا لتظهر أمامه فرصة للهجرة يسعى من خلالها إلى نيل هذا الاعتراف في وسط مختلف تماما عن محيط بلاده من حيث النظم وخصوصية المعيش مما يجعله يسلم بأن هذا الفضاء هو الأنسب للاستقرار واستكمال طموحه المهني والمعرفي.

المنهجية المتّبعة

إن اعتمادنا لمنهج دراسة الحالة لم يتأت من فراغ إذ يعود ذلك إلى أهميته في جمع المعطيات اللازمة حول الفرد، مما يمكننا من فهم سلوكه أو المشاكل المتعلقة به وتأويلها وقد تعددت التعاريف حول هذا المنهج ومنها "أن الحالة هي وحدة قد تكون فردا أو مجتمعا، أو سكانا للمجتمع من الوحدات التي يمكن أن تخطر على بال المرء وتتميز بكونها محددة الملامح، واضحة الحدود"[5]، كما أنها "وسيلة لفهم التفاعل الذي يحدث بين العوامل التي تؤدي إلى التغيير والنمو والتطور على مدى فترة من الزمن وهي تتكامل مع عملية خدمة الفرد التي تهدف الى العلاج اعتمادا على ما تقدمه له دراسة الحالة"[6].

كما اعتمدنا أيضا على تقنية المقابلة المباشرة باعتبارها إحدى وسائل هذا المنهج إذ يعرفها كوفمان بأنها مقابلة تجرى من خلال دينامية عكسية : ينطلق الباحث بكل نشاط في الأسئلة من أجل إثارة المبحوث وتعتمد على تحليل المحتوى لتحليل البيانات. كما يشير أيضا "أنه يتوجب على الباحث عدم إطلاق أي اتجاهات لها خصوصية لدى المبحوث والتي تجعله حذرا من الدخول في المقابلة، أي إذا كانت الأسئلة شخصية تكون الإجابات شخصية"[7]، ولهذا وجب على الباحث أن يفهم سلوك المبحوث ويعيه ويكون هو المسؤول عن تأطير المقابلة، ويجب على المبحوث في المقابل أن يستوعب سلوك الباحث على أنه يهتم به باعتباره شخصا استطاع الدخول في مجال فضائه الخاص وأنه يهم نظام تفكيره الى درجة الملازمة.

---

[5] فراس عباس فاضل البياتي، علم الاجتماع «دراسة تحليلية، النشأة والتطور»، عمّان، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط. 1، 2012، ص 43.

[6] إبراهيم مروان عبد المجيد : أسس البحث العلمي لإعداد الرسائل الجامعية، عمان ، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع ، ط 1 2000 ، ص 135.

[7] Jean Claude Kaufmann، *L'entretien compréhensif*، Paris، Armand colin، éd 2011، pp18،19..

أما بالنسبة إلى أنموذج بحثنا فقد اعتمدنا على أحد الكفاءات المهاجرة نظرا إلى عدة عوامل سنتطرق اليها تباعا في هذا البورتريه، فهو شاب يدعى نضال متميز علميا، متزوج ينحدر من أسرة مثقفة توفي والده وهو في سن الثانية عشرة، له أخ وحيد إلى جانب أمه المريضة، كما أنه كان موظفا ساميا في إحدى مؤسسات التأمين.

ومن هنا نتساءل لماذا خيّر نضال الهجرة ولم يكتف بعمله في تونس ؟

1. أين أنا ؟ . . . من التميز إلى الهامشية

إن التميز والنجاح هما من سمات الشباب الطموح، الذي يسعى إلى تغيير محيطه الاجتماعي والعائلي نحو الأفضل، وذلك عبر التموقع الجيد صلب منظومة التشغيل بما يتماشى مع مؤهلاته العلمية وكفاءته العملية. لكن اصطدام المأمول بالواقع أثبت أن الكفاءة عادة ما تكون مهمشة أو ضحية المؤسسة الإدارية التونسية التي بقيت تقليدية الوسائل والقوانين، ناهيك أيضا أنّ الوضع العام الذي باتت تعايشه البلاد إبان الثورة زاد في تعميق حالة التهميش والاغتراب الاجتماعي، طبعا هذا انطلاقا مما سيوضحه نضال في سياق هذا البحث، فماهي صور التهميش التي واجهها في تجربته الذاتية ؟

1.1. مسار دراسي متميز يتسم بالتحدي

نضال من الكفاءات التونسية الشابة، ويبلغ من العمر 29 سنة، متزوج من مهندسة إعلامية منذ سنة تقريبا كما أنه مسؤول عن أمه وأخيه. تحصل على باكالوريا إعلامية بمعدل جيد من المدرسة الثانوية سيدي ثابت، ثم درس علوم وشبكات الإعلامية بجامعة بنزرت وكان الأول على دفعته بملاحظة ممتاز، ورغم انخراطه في سوق العمل إلا أنه أبَى إلا أن يستكمل دراسته إيمانا منه بأهمية المسار العلمي في تحقيق صورة ذاتية واجتماعية مميزة للفرد، ولهذا درس ماجيستير اتصال بجامعة المنار إلا أنه وبسبب اجبارية الحضور من ناحية والتزامه المهني من ناحية أخرى لم يستطع استكمال دراسته، لكن وبناء على نصيحة أساتذته قرر الخوض في تحد علمي جديد يعكس مدى طموحه وسعيه الدؤوب إلى تحقيق ما يصبو إليه، فقد سجل في الجامعة الافتراضية

في تونس ودرس طيلة سنتين متحديا ذاته أولا وظروف عمله ثانيا، ورغم كل الصعوبات تحصل على شهادة الماجستير المهني في الاتصال والشبكات الإعلامية بملاحظة حسن جدا وقد لامسنا فخره بذاته أولا وبمعدله ثانيا لأنّ هذه الشهادة صعبة المنال. كما أن هذا التخصص يكتسي أهمية خاصة في المسار المهني إذ أن جل المؤسسات التجارية والاتصالات الكبرى لا يتم ترقية موظفيها في المناصب العليا إلا عند إحرازهم على هذه الشهادة. وبهذا أصبح منصب نضال معادلا لمنصب مهندس، ومن ثم تمت ترقيته الى منصب نائب رئيس مصلحة.

فماهي الظروف التي دفعت به الى الهجرة إذن ؟

2.1. من النمطية الادارية الى رتابة العيش

يعد نضال من الكفاءات المتخصصة أي أنه من الأشخاص الذين تابعوا دراستهم الجامعية في بلدانهم الأصلية، وقد بينا هذا في مسيرته العلمية السالف ذكرها.

ورغم هذا التميز إلا أنه لا يجد الموازنة بين مستواه العلمي وبين ما يصبو إليه من معيش، ففي رحلته لتطوير ذاته و إكسابها المزيد من المعارف، يجد نفسه في دائرة الثبات المفروض لا مجال للامتيازات التي كان يحلم بها، وهذا الثبات هو نتيجة لعدة عوامل تآلفَت فيما بينها لتخلق نوعا من الروتين وبالتالي الملل والرتابة، وأولها ضعف المردود المادي وانخفاض المستوى المعيشي وعدم توفير الظروف المادية والاجتماعية التي تؤمّن له العيش في مستوى اجتماعي مناسب، فقد صرح أنه ظل مدة سنتين في بدايته العملية يتقاضى ما قيمته 350 دينارا منها 150 دينارا تمنحها الدولة في إطار عقد عمل و200 دينار منحة تربص تمنحها المؤسسة، ناهيك أنه لم يتمتع خلال هذه الفترة بأية حقوق مهنية. وبعد ترسيمه وعلى الرغم من ترقيته فإن راتبه بقى في حدود المتوسط، ولا يلبي حاجياته بالرغم من بعض الامتيازات المادية التي يتمتع بها، وبمقارنة وضعه مع أصدقائه العاملين في القطاع الخاص والذين يقاسمونه نفس الاختصاص ونفس درجته المهنية يرى نفسه دونهم على كافة المستويات و الامتيازات، وفي هذا الاطار يقول "*إن أغلب الموظفين عامة العاملين في*

المؤسسات العمومية لا يتقاضون ما يناسب مؤهلاتهم بل حتى أن الراتب لا يكفيهم أحيانا لتلبية حاجياتهم".

ومن العوامل الأخرى أيضا نجد الهيمنة والتسلط والفساد الاداري وتضييق الحريات على العقول العلمية المتمثلة في ذوات الموظفين خاصة منهم الشباب مما يجعلهم يعيشون في احباط تام، فقد ذكر نضال أنه كلما طالب المؤسسة التي يعمل بها بإدراج اسمه في لائحة الأشخاص الذين سيتم تكوينهم رفض المسؤولون ذلك معللا هذا بأن الحصول على التكوين أمر طغت فيه المحسوبية والعلاقات النافذة. أما بخصوص منصبه فهو يرى أنه يستحق منصبا أعلى من هذا على اعتبار أن كفاءاته العلمية وخبراته العملية تخول له ذلك، لكن الاشكالية تنحصر حسب تعبيره في انعدام الشفافية بخصوص الترقيات لأنه لا توجد مقاييس واضحة ومحددة تقوم عليها عملية الترقية، إلى جانب انعدام التقييم الفعلي لقدرات الفرد المهنية وهو يرى أن هذا ما يضر بالإدارة التونسية ويصبغها بطابع النمطية الذي يئد كل إبداع، والمكان الذي كان يعمل فيه هو أنموذج مصغر لهذه النمطية.

أما العامل الأخير في نظر نضال فهو الجانب السياسي والاقتصادي من ناحية والعامل الشخصي من ناحية أخرى، والمقصود هنا أن البلاد التونسية اصبحت تشهد بعد الثورة ارتفاعا مطردا للأسعار خاصة في المواد الأساسية وهو ما أدى "الى تقهقر الطبقة الوسطى إذ تراجعت القدرة الشرائية بنسبة 40% في سنة 2015 الأمر الذي أدى الى تزايد مطلبية الطبقة الشغيلة"[8].

ومع تلاحق الحكومات الانتقالية و فشلها في وضع استراتيجيات اقتصادية وتنموية فعالة تخلّص المواطن التونسي من هذا الغلاء أصبح الوضع العام في تونس خاصة بعد الثورة لا يطاق حسب ما أفاد به نضال، فالإنسان بات يعمل فقط ليأكل دون امتيازات ودون مجال للتطوير من مستوى المعيشة ولا سبيل أيضا إلى البحث عن الرفاهية التي باتت مكلفة أيضا. وقد ذكر أنه عندما يذهب مثلا في فصل الصيف للاستجمام على حساب المؤسسة التي يعمل فيها، فإنها لاحقا تقطع من راتبه ثمن هذا الاستجمام عبر أقساط، هذا دون اعتبار أيضا

[8] زياد زرعي، دعم قضايا الشباب، تقرير منظمة راج تونس، تأطير ياسين النابلي، 2016، ص. 8.

إلزامية دفع الديون المتخلدة بذِّمته، فهو يصف الحياة بأنها أصبحت قاسية في تونس، مما دفعه إلى البحث عن فرصة للهجرة رغم أنها من المواضيع التي كانت محظورة في ذهنه لعدة اعتبارات أهمها مرض والدته. يستنتج مما سلف تآلف الوضع السياسي ممثلا في الثورة وحكومات الانتقال الديمقراطي والحالة الاقتصادية المتسمة بتدهور مستوى العيش ليشكلا دافعا للهجرة في الأوساط الشبابية عامة والكفاءات خاصة.

هنا يمكن التأكيد على أمر وهو أن انتشار ثقافة الهجرة باعتبارها من أسهل الحلول وأهمها للهروب من واقع اجتماعي واقتصادي متأزم من شأنه أن يؤدي إلى ضعف الشعور بالمواطنة والانتماء إلى هذا البلد والحقيقة أن نضال يرى أن الكفاءات في بلادنا عادة ما يتم تهميشها مما يدفعها إلى البحث عن إعادة الاعتبار خارج وطنها.

2. المهجر ونموذجية الاعتراف بالآخر

إن تميز الكفاءات العربية عامة والتونسية خاصة في جل المجالات العلمية والتكنولوجية جعلها هدفا للاستقطاب الأجنبي الذي يسعى دائما إلى توفير امتيازات يراها المهاجر عاملا من عوامل الاعتراف بقيمته العلمية أولا والإنسانية ثانيا، فلطالما كان الغرب هو الأنموذج الأمثل في تصورات الشباب على مستوى حقوق الإنسان ورفاهية العيش التي تكون شبه منعدمة في أوطانهم، فماهي أسباب هذا الإقرار حسب تصور نضال ؟

1.2. هذا التقدير الذي أبحث عنه

صحيح أن الظروف التي سلف ذكرها دفعت نضال الى التفكير في الهجرة إلا أن هذه الفكرة استوطنت ذهنه بعد أن أرسلت له احدى المؤسسات البنكية في بلد أوروبي عرضا للعمل معها وذلك عبر الموقع الافتراضي "LinkedIn"، والذي يؤكد نضال أنه قد سجل فيه قصد التجربة ولم يكن جادا في استعماله إلى أن جاء العرض الآنف ذكره والذي وجد أنه فرصة تستحق المغامرة، ولم لا فربما كانت هذه فرصة عمره التي ستغير مسار حياته جذريا ويحقق من خلالها ما يصبو اليه، خاصة و أنه لامس الجدية في التعامل معهم إذ أجروا معه

ثلاث مقابلات عمل بواسطة "السكايب" وكان ممتحنوه في المرحلة الأولى من المهندسين المتخصصين، ومنذ البداية يؤكد نضال أنه نال قبولهم واستحسانهم وهو ما جعلهم يزورون تونس لإجراء مقابلة مباشرة معه وهذه المرة مع ممثل الموارد البشرية ورئيس المشروع الذي سيعمل ضمن فريقه وقد أعجبوا بخبرته المهنية وأكدوا قبوله وتعيينه وقد تكفلت هذه المؤسسة بكافة الإجراءات الإدارية والمهنية، منها تصريح العمل والوثائق الخاصة بالتأمين والإقامة وغيرها . . . وحسب ما أفاد به نضال تعهّدوا بتجهيز ملفه الصحي وتحمل كل المصاريف عبر إرساله الى مصحة خاصة في تونس، أين أجرى كل التحاليل الطبية ناهيك أن العقد ثم إمضاؤه بسرعة كبيرة، أما هو فكانت مهمته الوحيدة هي إيداع كل الوثائق التي أرسلوها اليه إلى الجهة المسؤولة عن ملفه وهي المكتب الفرنسي للهجرة والاندماج.

ثم بقي في انتظار التأشيرة التي تأخرت بسبب العطلة الصيفية وقد أفاد نضال أن "*الهجرة ليست بتلك الصعوبة المتخيّلة*" طبعا هذا حسب تجربته الخاصة والتي رأى فيها حلمه الدائم وهو الاعتراف به علميا أولا ومهنيا ثانيا.

والسؤال المطروح لماذا ترغب الدول الغربية في استقطاب كفاءاتنا وتوفير ما عجزت عنه أوطاننا ؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب فهم استراتيجيات الدول الغربية والتي عادة ما تكون مدروسة ووفق تخطيط منظم من أجل تعويض حالة النقص التي تعيشها، والمقصود هنا انخفاض نسبة "***العقول العلمية***" في الدول المتقدمة صناعيا بسبب التهرم السكاني وانخفاض نسب الولادة وبالتالي انخفاض مستوى المتخصصين في المجالات العلمية والتقنية، مما يجعلها تبحث عن كفاءات أجنبية، معتمدة في سياستها الاستقطابية على الاغراءات المادية، وهذه السياسة تجذرت بصفة مثيرة للانتباه في السنوات الأخيرة باعتبار أن غالبية الدول المتقدمة بات مستوى نموها السكاني ينخفض خلافا لدول العالم النامي ومنها الدول العربية الذي يشهد نموها ارتفاعا مطردا للسكان.

فالدول الرأسمالية تسعى إلى دعم مجتمعاتها بالكفاءات العربية، في المقابل تستنزف الدول النامية كفاءاتها وتجبرهم قسرا نحو ما يرونه "الفردوس" بالنسبة إليهم.

2.2. الامتيازات المهنية وفرص التطور

إن المتأمل في طبيعة القوانين الغربية يلاحظ صرامتها بخصوص منح التأشيرات للمواطنين الوافدين من الدول النامية، إلا أنها لا تتوانى عن تقديم الامتيازات والتسهيلات لكفاءات هذه البلدان وذلك من خلال توفير موارد مادية ضخمة تمكنها من تمويل فرص عمل مهمة، تشكل بها إغراء قويا للكفاءات العربية بما توفره من مستوى عيش ممتاز وضمانات اجتماعية وخدمات عديدة وهذا ما يؤكده نضال بقوله " *تقريبا دخلي اليوم يعادل ثلاثة أو أربعة أضعاف ما كنت أتقاضاه في تونس*" ناهيك أنه يكفيه لمعيشته ورفاهيته كما أنه يدخر منه، وهو لا يخفي انبهاره بطريقة العمل في الخارج، فكل المعاملات بالبصمة وبالإيميل حسب تصريحه، ويكتفي الفرد بإنجاز مهامه العملية فقط دون فرض مهام أخرى عليه مثلما هو الحال في الادارة التونسية، ويذكر مثلا أنه في بدايته العملية قد واجه بعض الصعوبات في اللغة، فمرة لا يجد التعابير أو الكلمات المناسبة لكن هذا لا يهم مسؤوليه على حد قوله، المهم عندهم إيصال المعلومة فقط، فهم قد اختبروه سابقا، لذلك يعرفون مستواه اللغوي منذ البداية، فالمهم عندهم كيفية تسيير عمله باعتبار أن اختصاصه من الاختصاصات القليلة والمطلوبة في الدول الغربية ولهذا مازالت العديد من الشركات الأجنبية تراسله من أجل الانضمام إليها، إضافة إلى أن جل المؤسسات الأجنبية عادة ما تتيح الفرص للعاملين في مجال البحث العلمي وخاصة منهم المتميزين الذين يثبتون كفاءاتهم، وتطورها من جهة وتفتح أمامهم آفاقا جديدة أوسع تتسم بالعطاء من جهة أخرى وهذا ما يبينه نضال في مقارنته بين عمله في تونس وعمله الحالي، فهو يرى في العموم أن المختصِّين في الغرب يحترمون قدرات الكفاءات ورأيها في كيفية تسيير العمل أما في تونس فلا مجال للإبداع حسب تعبيره، إذ يجب أن تعمل دون اعتراض ودون جدال ودون إبداء رأي، كأنك لا تعمل لحساب مؤسسة عمومية بل لحساب مديرك في العمل، خلافا للبلد الذي يقيم فيه، فهو يؤكد على مبدإ التناصف والانفتاح في صلب المؤسسة من أجل حسن تسيير العمل وقد قدم مثالا في صورة اختلاف شخصين حول مقترح أو طريقة للعمل. في هذه الحالة يحدث المسؤولون لجنة يُستمع فيها لكلا الطرفين ثم تقرر أيهما الأفضل للعمل به. ثم يعود أيضا للمقارنة بين عمله السابق والحالي ويستنكر كيف أنه كلما طالب بفرصة للالتحاق بتكوين من أجل تطوير معارفه

في مجال عمله إلا و يرفض مطلبه ، هذا دون اعتبار ردة فعل بعض المسؤولين إذا ما قدم رأيه حول كيفية تسير العمل أو في بعض المسائل المتعلقة بمجال اختصاصه، هي ردة فعل يراها هادمة لكل طموح يحمله أي موظف شاب يريد الرفع من مستوى الإدارة التي يعمل فيها والتي بقيت تقليدية على كل المستويات بسبب الجمود الفكري والمهني لمن يرون في رأي موظف تحت إمرتهم تجاوزا لصلاحياتهم وتعديا على سلطتهم في الإدارة.

لكن رغم هذا يقر نضال بوجود بعض الإكراهات في صلب هذه المثالية المهنية، وذلك من خلال طبيعة العلاقة مع زملائه في العمل وأغلبهم من التونسيين والمغاربة والجزائريين و هي علاقة جيدة في نظره تخفف عنه "الغربة" فهم يتحدثون باللغة العربية فيما بينهم وهو أمر لم يستسغه بعض زملائهم الغربيين والذين وصل بهم الأمر إلى تقديم شكوى بخصوص هذا الموضوع إلى مرؤوسهم والذين وجهوا بدورهم إنذارات وتنبيهات لتلافي هذا الإشكال في العمل لأنه ينعكس سلبا على المردود المهني للمؤسسة أولا وعلى البعد العلائقي بين العامليين ثانيا. ورغم استنكاره لهذا عاطفيا إلا أنه يرى أن هذه السلبية في حد ذاتها تمثل نموذجية المهنية إذا ما تأملها من الناحية العقلية.

3. البحث عن مواطنة بديلة

1.3. القيمة الانسانية في المهجر

في هذا الخصوص ذكر نضال عدة امتيازات تم التطرق إليها في سياق تحليل المحاور السابقة ومنها ارتفاع راتبه الذي خول له العيش برفاهية مقارنة ببلاده فمستوى المعيشة في الغرب ليس مكلفا كما هو متصور، صحيح أن السكن والاستئجار باهظ الثمن، لكن الأكل والملبس ومتطلبات الإنسان اليومية رخيصة مؤكدا على وجود توازن في المعيشة، فالكل يستطيع العيش بكرامة، وهو يرى أن هذا الجانب يمثل قيمة إنسانية مفقودة في الوطن العربي عامة وتونس خاصة، فالمواطن التونسي لم يعد يستطيع توفير أبسط متطلباته اليومية خاصة في ظل الارتفاع المطرد للأسعار وضعف الدخل الفردي، "*فالمعطيات تشير إلى أن تونس تحتل المرتبة الثالثة في شمال إفريقيا في مؤشر ارتفاع تكلفة المعيشة لسنة 2017*" وهذا ما أفردته التقارير الوطنية و نشرته صحيفة الشروق في إحدى أعدادها.

هذا من جانب ومن جانب آخر يرى نضال أنه من المظاهر الإنسانية الأخرى هي احترام الخصوصية الفردية للإنسان خلافا للمجتمعات العربية التي لا تعرف هذه الميزة، وربما لهذا هي متأخرة لأن الوقت الذي تستثمره في البحث في الحياة الخاصة للفرد أكثر من الوقت المستثمر في الانتاجية في مقابل ما هو موجود في الدول المتقدمة وهذا هو سر تقدمها. فهو يؤكد أن المجتمعات الغربية هي مجتمعات عملية وهي ليست اجتماعية الى حد ما فمثلا عندما استقر في بداية هجرته كان منزله في منطقة يسكنها الكثير من المغاربة والأتراك وغيرهم، وكان بحكم الجوار والعوامل المشتركة الاخرى كاللغة والدين مع بعض الأقليات ملزما بتبادل التحية معهم لا غير، ويعزو هذا لانعدام وجود وقت فراغ لإنشاء علاقات اجتماعية، التي هي ليست هدفه الأساسي، فالهدف من هجرته هو العمل واكتساب خبرات مهنية جديدة تخول له الحصول على فرص أفضل، لكن عندما غير مقرّ سكنه فإن سكان المنطقة الجديدة لا تربطه معهم أي عوامل مشتركة ولا وجود لأي علاقة له معهم حتى لو كانت مجرد تحية، وهذا أمر لا يؤثر فيه بل على العكس، هو معجب به ويعتبره ميزة لتطورهم وتقدمهم.

2.3. الاستقرار مشروع عائلي

إنّ ما يثير القلق، حقيقية هو أن ظاهرة الهجرة أصبحت ثقافة متجذرة في صفوف الشباب التونسي وبالتالي ضعف مواطنتهم ومحاولتهم الانسلاخ عن الوطن الذي كان المصدر الأول في تكوينهم وإعدادهم ليكونوا كفاءات لتصل هذه المحاولة الى المغالاة في تبجيل الغرب وقيمه وثقافته وهذا في رحلة بحثهم عن الآمال والاحلام، فنضال مثلا أقر أنّ العودة الى الوطن هي من المسائل المطروحة ولكنها في ذات الوقت مشروطة بمدى بلوغ هدفه وذلك من خلال قوله "نعم أنوي الاستقرار، وحتى مسألة العودة مطروحة على الأمد البعيد حتى أنني أرغب في تسفير أمي وزوجتي وأخي للاستقرار معي"، والمتأمل في هذا التصريح يرى أن عبارة "على الأمد البعيد" تحمل دلالات الاستحالة، ناهيك على أنه راغب في اصطحاب أسرته كلها معه للاستقرار في المهجر فهو بهذا يقطع مع العودة لأن العنصر الوحيد الذي يربطه بوطنه هو أسرته، و إذا أصبحت مستقرة معه فما الذي سيعيده إلى تونس ؟ ربما ستكون زيارته في إطار الاستجمام أو

زيارات عائلية لأهل زوجته، كما أنه يعتبر بلد الإقامة مجرد محطة لاكتشاف الآخر المتقدم، والذي من خلاله سيتعلم ويتطور ويكتسب معارف جديدة من أجل البحث عن فرص أفضل وفي بلدان هو يراها بلدانا نموذجية يطيب فيها العيش وهذا من خلال قوله "*أريد أن أطوّر خبراتي لمدة سنة أو سنتين ومن ثم أريد البحث عن فرص أخرى أفضل من عملي هذا وفي بلدان مثل ستراسبوغ أو المانيا ولم لا كندا*".

ومن خلال كل ذلك نستنتج أنّ العيش بالمهجر هو حلم يرى الشباب وجوب التشبث به، وأنّ مفهوم المواطنة وقيمها باتت تضعف اليوم في صفوفهم لعدة اعتبارات أهمها الأوضاع السياسية المتأزمة والاقتصاد المتدهور والشأنين الاجتماعي والأمني المترديين، كل هذه العوامل جعلت الوطن عبئا على أبنائه، الذين يسعون إلى الانسلاخ عنه.

الخاتمة

لا ريب أن المجتمعات العربية عامة والمجتمع التونسي خاصة تتعرض منذ أمد بعيد إلى استنزاف كفاءاتها تزامنا مع استنزاف طاقتها ومواردها مما أضعف اقتصادها وأباح سياستها ناهيك عن تمزيق كياناتها الاجتماعية، الأمر الذي سبب لمؤسسات المجتمع حالة من الركود والجمود الفكري والثقافي، وجعل الدول عاجزة عن إدارة الأزمات أو حتى ابتكار استراتيجيات إصلاحية علمية تقوم على استشراف مستقبلها ومستقبل شبابها. دون أدنى شك تتسم هذه الظاهرة بالديناميكية والحركية الدائمة مما زاد في تعميق الهوة العلمية والاقتصادية والفكرية بين العالمين النامي والمتقدم، لهذا وجب على البلاد التونسية مثلها مثل سائر البلدان التي تعاني من هذا الاستنزاف أن تراجع قوانينها وتشريعاتها المتعلقة بسياسات التشغيل في أوطانها والبحث عن سبل الاستفادة من قدرات هذه العقول ومعارفها في النهوض بالتنمية ،كما يجب العمل على القضاء على مسببات الهجرة والعمل على تحسين السياق الاجتماعي والمعرفي، كما نؤكد أيضا على أهمية توفير بيئة مهنية محفزة للعطاء ولم لا الاعتماد على الكفاءات المستقرة في الخارج وتشريكها في النشاطات العلمية والفكرية التي تتم داخل الدول عوض جلب الكفاءات الأجنبية التي عادة ما تكون عالية الكلفة

وهو ما يجعل الدول النامية تتكبد خسارة مالية مهمة بجانب الخسارة المالية التي تتكبدتها للإنفاق في تكوين هذه الكفاءات وتعليمها. فالإشكال الحقيقي يكمن في عجز أوطاننا عن فهم أنّ الاستثمار الحقيقي للشعوب هو الاستثمار في مواردها البشرية باعتبارها مفاعل فكرية وعلمية وجب تمكينها من كل التسهيلات لخلق مناخ إبداعي يساعد على الخلق و الإنتاج لتحقيق التنمية المستدامة التي تصبو إليها كل دول العالم الثالث ومن بينها تونس. كما وجب أن ننوه بأهمية إعادة بناء مفهوم الهوية وهيكلتها وتعزيزها في شخص هذا النشأ الذي بات منبهرا بثقافة الآخر مفاضلا بينها وبين ثقافة مجتمعه وهو ما يعني حدوث تغيير جذري في بنائها الاجتماعي والهوياتي. فالوطن رغم "عجزه" عن استيعاب أحلام شبابه إلا أنه لا يستحق الانسلاخ عنه أو القدح فيه و لا مجال للقول إنّ "*هجرة الكفاءات ليست خيانة للوطن و إنما بحث عن بيئة تصلح أن تكون وطنا*" على حد تعبير أحد المفكرين.

المراجع

– البياتي فراس عباس فاضل، علم الاجتماع : دراسة تحليلية، النشأة، التطوّر، عمّان، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط. 1، 2012.

– مروان عبد المجيد إبراهيم ، أسس البحث العلمي لإعداد الرسائل الجامعية، عمان، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع ط. 1، 2000.

مقالات من الانترنات وتقارير

– الجزيرة نت، "ما السبيل إلى الحد من ظاهرة هجرة العقول والأدمغة من العالم العربي؟" منشور على موقع الجزيرة نت. 7 أيلول/سبتمبر 2008. انظر : https://www.aljazeera.net/2008/09/07/%D9%85%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%A8%D9%8A%D9%84-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AF-%D9%85%D9%86-%D9%87%D8%AC%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%82%D9%88%D9%84

– زرعي زياد، دعم قضايا الشباب، تقرير منظمة راج تونس، تأطير ياسين النابلي، 2016.
– قردود عمار، "94 ألف كفاءة غادرت تونس في ظرف 6 سنوات و15 منذ بداية 2018"، مقال نشر بأنباء تونس Kapitalis يوم 29/10/2018 أنظر -http://www.kapitalis.com/anbaa tounes/2018/10/29/94-%D8%A3%D9%84%D9%81-%D9%83%D9%81%D8%A7%D8%A1%D8%A9-%D8%BA%D8%A7%D8%AF%D8%B1%D8%AA-%D8%AA%D9%88%D9%86%D8%B3-%D9%81%D9%8A-%D8%B8%D8%B1%D9%81-6-%D8%B3%D9%86%D9%88%D8%A7%D8%AA-%D9%8815-%D8%A3%D9%84/

مراجع اجنبية

- Kaufmann Jean Claude, */ øHQWHWHQ FRP SUKHQVL*, Paris, Armand &R0Q G

ثقافة التميّز وإعادة إنتاج النجاح بالمهجر[1]

بلال المزوغي[2]

المقدمة

يعتبر الاعتراف الاجتماعي[3] مسألة هامة في مجتمعنا اليوم لارتباطه بالنجاح والتفوق اللذان يحققهما الفرد. فمثلا تعتبر دراسة شعبة الطب أو الهندسة شكلا من أشكال التميّز على عكس التنشيط الذي يصنّف ضمن المجالات الهامشية التي لم تظفر بالاعتراف الاجتماعي بالشكل المطلوب. وهو ما مثّل سببا جعل البعض يختار الهجرة بحثا عن التميّز في مسار دراسي جديد. فالهجرة من أجل الدراسة تعتبر اليوم رهانا لدى العديد من العائلات التونسية، وتمثل نوعا من الاستثمار المعرفي في الأبناء خصوصا في ظل تفاقم عدد خريجي الجامعات التونسية حيث وصفها البعض بحالة الانفجار المدرسي[4] مقابل تراجع الدولة عن دورها التنموي والتشغيلي في خلق الوظائف بحظوظ متكافئة لخريجي الشعب الفنية والأدبية. فدمقرطة النجاح اليوم لا تعني بالضرورة دمقرطة الشغل والرفاه[5].

---

[1] أنجزت هذه الورقة تحت إشراف الأستاذة راضية مشكان في إطار ورشة الكتابة التي نظمتها جمعية تونس الفتاة مع منظمة كونراد أديناور (خلال شهري جويلية وسبتمبر 2019).

[2] باحث دكتوراه في العلوم الثقافية بالمعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي بئر الباي، جامعة تونس.

[3] يعتبر الفيلسوف الألماني والباحث الاجتماعي اكسل هونيث من أهم المفكرين الذين بحثوا في مفهوم الاعتراف، حيث ناقش هونيث الأسس والنظريات الفلسفية للاعتراف بدءاً من هيغل وصولاً إلى جون بول سارتر، وقد حلل دور البنى السياسية والأخلاقية والذاتية في الصراع من أجل الاعتراف وأشكال الانكسارات (الجور، سلب الحق، الإهانة، الاقصاء، الاحتقار) ومدى انعكاسها على الهوية الفردية والجمعية. انظر :
Honneth Axel، *La lutte pour la reconnaissance*، Ed Cerf، 2000.

[4] الانفجار المدرسي هو حالة تفاقم عدد الخريجين والمتعلمين نتيجة السياسة التربوية ذات البعد الشعبي، انظر كتاب :
الحبيب الدرويش، *دراسات في قضايا التنشئة والتمكين والاندماج*، تونس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صفاقس، 2010، ص. 175.

[5] فتحي الرقيق، *من مرونة العمل إلى مدينة المشاريع : مقاربة سوسيولوجية*، تونس، دار محمد علي للنشر، الطبعة الأولى، 2009، ص. 184.

وفي هذا الاطار تهتم هذه الورقة بقضية الهجرة من أجل المعرفة وذلك بالاعتماد على دراسة حالة تتمثّل في «ملاك» وهي شابة تونسية لم تحظ بالاعتراف الاجتماعي والمؤسساتي بعد دراستها للتنشيط، فنظرة المجتمع لهذا التخصص ظلت تعتبره حرفة أكثر من كونه تخصصا أكاديميا[6]. وهذا جعلنا نتساءل عن أسباب التمييز بين التخصصات في تونس ؟.

إنّ الاهتمام بهذه الظاهرة يجعلنا ندرسها في سياقها الكلي وليس الفردي فقط. فالهجرة في الظاهر سلوك شخصي إلاّ أنها في جوهرها ظاهرة اجتماعية كلية بعبارة مارسيل موس[7] تتداخل فيها العديد من الأبعاد. كما أنّ الهجرة بجهة جرجيس تعتبر ثقافة مجتمع محلي حيث تتساوى حظوظ الجنسين من أجل هدف واحد وهو الاستقرار في بلد أجنبي وخاصة فرنسا، ولكن خلافا لما هو متداول حول ارتفاع عدد المهاجرين بهذه الجهة فإن أغلب المسؤولين أكدوا أن عدد الذين هاجروا من منطقة جرجيس قد يصل إلى أكثر من9 آلاف مهاجر من أصل 25 ألفا غادروا البلاد التونسية بعد الثورة[8].

وتعتبر الهجرة من أجل المعرفة لدى الإناث بجرجيس تحولا نوعيا ، ذلك أن السائد في مجتمعنا التونسي، هو أن الهجرة «سلوك ذكوري» بامتياز. لكنّ الحاجة اليوم إلى التميّز لم تعد مطلبا يحتكره الذكور فقط بل أن العائلات التونسية أصبحت تراهن على تميّز أبنائها من الجنسين بنفس الحظوظ، وحسب الأرقام التي قدمها المعهد الوطني للإحصاء بلغت نسبة المهاجرين من أجل الدراسة في الفترة الممتدة بين أفريل 2009 وأفريل 2014، 14.2%[9]. وهي ثاني أعلى نسبة

---

[6] فيما يتعلّق بالتمييز بين الاختصاصات والمهن، انظر على سبيل المثال :

Pierre–Michel Menger، *Les professions et leurs sociologies*، Paris، Éditions de la Maison des sciences de l'homme، 2003 et Andrew Abbott، *The System of Professions*، Chicago، University of Chicago Press، 1988.

[7] انظر :

Marcel Mauss، Essai sur le don. Forme et raison de l'échange dans les sociétés archaïques، in .Sociologie et Anthropologie، Paris، PUF، pp. 143–279

[8] عبد الستار السحباني، الشباب والهجرة غير النظامية في تونس : دراسة ميدانية للتمثلات الاجتماعية والممارسات والانتظارات، تونس، منشورات المنتدى التونسي للحقوق الإقتصادية والاجتماعية، ديسمبر2016، ص. 35.

[9] Recensement général de la population et de l'Habitat 2014، volume 5 : Caractéristiques migratoires ،Tunis ، Pub INS، Mars 2017، p. 20.

بعد الهجرة من أجل العمل. كما حاولنا من خلال هذه الورقة فهم أسباب الهجرة من أجل طلب العلم وكيف يصبح البحث عن الاعتراف والتميّز مطلبا خارج الوطن تنخرط فيه العائلة. فالنجاح لم يعد مجهودا شخصيا فقط بل أضحى ايضا شكلا من أشكال التوريث العائلي[10]. وبالاضافة الى ذلك حاولنا تقديم قراءةتفهمية حول علاقة الهجرة بمطلب البحث عن المعرفة وإعلاء قيمة العلم.

فماهي العلاقة بين فكرة الهجرة والتحصيل العلمي باعتباره رهانا شخصيا وعائليا ؟ وكيف تصبح الهجرة طريقا إلى تحقيق التميز العلمي ؟ وإلى أي مدى يمثل هاجس التميّز المهني والمعرفي شرطا للإستقرار في المهجر ؟

ولتحليل هذه المسألة، اعتمدنا في هذه الورقة على دراسة حالة تتمثّل في استجواب شابة صاحبة شهادة وهي أصيلة جرجيس تُدعى ملاك وتبلغ من العمر 26 سنة، عاشت تجربة الهجرة. وقد استندت هذه الدراسة على تقنية المقابلة التفهمية التي تقوم على المعرفة الاجتماعية المستبطنة لدى الأفراد باعتبارهم ليسوا فقط مجرد أعوان حاملين للبنى بل منتجين للفعل الاجتماعي[11]. كما تحصلنا على المعطيات من خلال الاتصال بالمهاجرة موضوع بحثنا باستخدام تقنية المقابلة التي وقع إجراؤها عن طريق الميسانجر messenger وتدوين المعلومات.

1. ثقافة التميز رهان عائلي وفردي

يعتبر التميّز قيمة مهمة في المجتمع. فهو يدل على مكانة الفرد والموقع الذي يحتله. ويصبح هذا التميز ثقافة عندما يكون طريقة عيش لدى البعض. فمثلا يعتبر تعلم اللغات الأجنبية أو التفوق الدراسي في بعض المجالات شكلا من أشكال التميّز، ما جعله محور انشغال العديد من العائلات التونسية التي تبحث عن التفاخر والتفاضل فيما بينها. فقد ترسخت قيمة التميّز مثلا لدى ملاك منذ أن كانت في تونس. حيث كانت تحب الدراسة وحريصة على التفوق فيها. فتكونت لديها الرغبة في مواصلة دراستها في فرنسا خصوصا بعد تخرجها من شعبة التنشيط.

[10] انظر :

Anne Jourdain، Sidonie Naulin، «Héritage et transmission dans la sociologie de Pierre Bourdieu»، *in Idées Economiques et Sociales*، N° 166، 2011/4، pp. 6–14.

[11] Jean– Claude Kaufmann، *L'entretien compréhensif*، Paris ، Armand Colin ، 2011، p. 23.

1.1. النجاح الدراسي قيمة فردية

كانت ملاك تقطن في جهة جرجيس وكانت متميزة في الدراسة خاصة في المرحلة الابتدائية. وكانت في المرحلة الثّانوية تستهويها شعبة العلوم لكن ضعف مستواها في الرياضيات جعلها تتوجّه إلى شعبة الآداب فتحصلت على الباكالوريا لتلتحق بالدراسة في المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي ببئر الباي. فحبها للفن والثقافة جعلها تختار هذه الجامعة خاصة انها دائمة الانشغال بالعمل الجمعياتي والتطوعي، وتواكب تقريبا أغلب الأنشطة الثقافية التي تحدث في جهتها.

قرّرت ملاك أن تسافر من أجل الدراسة. والترسيم بمستوى الماجستير بجامعة باريس «كريتاي» واختيار اختصاص علوم التربية. وأثناء التحاقها بالجامعة تعرضت الى العديد من الصعوبات المرتبطة أساسا بالمنهج التربوي بسبب الاختلاف بين مسارها الدراسي في تونس والمسار الدراسي في فرنسا، مما جعلها تطّلع بصفة أدق على المعارف الخاصة ببلد المهجر مثل : السياسة الفرنسية، التاريخ، الأدب. إضافة إلى مشاكل أخرى مرتبطة باللغة. فإتقانها يعتبر أمرا ضروريا للنجاح. ولكن ورغم هذه الإشكاليات استطاعت ملاك الارتقاء في السنة الأولى والدخول في مرحلة إعداد رسالة الماجستير.

كانت ملاك أثناء تواجدها بتونس تقبل على الأنشطة العلمية التي ينظمها المعهد الفرنسي. وقد درست اللغة رغبة منها في تطوير قدراتها، فتحصلت بذلك على مستوى « ب 2» في اللغة الفرنسية الذي سهّل عملية قبولها في الجامعة. كما أنّ طموح ملاك إلى تحقيق النجاح وبلوغ درجة هامة في السلم الاجتماعي جعلها تهتم بالمعرفة وتجعلها أولوية من أولوياتها. فقد كانت تقضي أغلب أوقات الفراغ في المكتبة أو في الجامعة. وحتى أثناء حصولها على عمل اشترطت أن يكون نصف وقت لكي تتفرغ إلى البحث.

ظلت ملاك تبحث دائما عن التميز المعرفي. فاختيار جامعة باريس "كريتاي" لم يكن اعتباطيا بل ارتبط بجودة التكوين ووجود مدرسين يمتلكون كفاءة عالية فعلاقتها بالجامعة تتحدد بحسب القيمة المعرفية بدرجة أولى وهذا يعكس الصورة الإيجابية للعلم لدى ملاك و مدى تقديرها للمعرفة. كما أنها تعتبر نجاحها الشخصي بمثابة الالتزام الذي يعتبر شرطا لكسب ثقة العائلة وحب الوالدين ما

جعلها تتأقلم مع كل الظروف والمشاكل حتى اختيارها العمل بنظام نصف الوقت لم يكن بدرجة أولى حبا في المال أو للعيش في الترف بل كان مرتبطا بتحقيق استقلاليتها وعدم إحراج والديها.

لقد ترسّخت فكرة حب النجاح لدى ملاك منذ الصغر وهذا ليس طموحا شخصيا فقط بل أيضا عائليا، فالتميز والتفوق لا ينتج نجاحا مهنيا فقط بل أيضا اعترافا اجتماعيّا بأنها فاعلة في الوسط الذي تنتمي إليه، فهو وسط يتّسم باحترام العلم. لذلك فإن ثقافة التميز في نظر عائلتها تعتبّر قضية وهاجسا.

2.1. تقدير المعرفة قيمة عائلية

تنتمي ملاك إلى عائلة مثقفة فوالداها ينتميان إلى سلك التعليم. وأغلب أقاربها أساتذة ولهم مستوى تعليم عال. فالتحصيل العلمي، حسب عائلتها، هاجس ومسألة ذات أولوية مقارنة بالمسائل الأخرى كالزواج أو العمل أو غير ذلك، فالعائلة كانت دائما مهتمة بفكرة التّميّز والنجاح الدراسي لذلك ترسّخ لدى ملاك أيضا الطموح والرغبة في بلوغ أعلى مستوى معرفي.

و يتجسّد هذا الاهتمام بالعلم وتقدير المعرفة من خلال دور الأب الذي كان داعما رئيسيا لهجرة ملاك. إذ تكفّل بالإجراءات المتعلقة بمستلزمات الهجرة مثل تحويل المال إلى حسابها الشخصي ودعمها ماديا خاصة في السنوات الأولى. إضافة إلى التنسيق مع الأقارب في فرنسا لكفالتها ومساعدتها سواء من خلال توفير السكن أو تسهيل عملية الترسيم وكل الأمور الإدارية. أما الأم فقد لعبت دورا أساسيا في هذا المسار. حيث كانت تدعم فكرة دراسة ابنتها في الخارج وكانت منشغلة بتميزها سواء كان ذلك ماديا أو نفسيا. فماديا دعمت ابنتها بالتّكفّل بمصاريف الدراسة في المعهد الفرنسي لإتقان اللغة وذلك عندما كانت في تونس، أما في الخارج فكانت حريصة على أن تعيش ملاك في ظروف لائقة حيث كانت تتصل بها دائما و ترسل لها المال خاصة في الفترة الأولى، أمّا نفسيا فيكمن دور الأم في تشجيع ملاك على الدراسة و طلب العلم وهذا أمر مهم جدا ذلك أن أغلب الأمهات في تونس وخاصة في الجنوب يراهنّ بدرجة أولى على زواج بناتهن والبحث عن الاستقرار.

وقد مثّل أيضا تداول اللغة الفرنسية واستعمالها بصفة دورية في الوسط العائلي حافزا أساسيا لإتقان ملاك اللغة بكل سهولة. ويعتبر سببا رئيسيا لاختيار

فرنسا وجهة بدل بلدان أخرى. إضافة إلى كون ملاك منذ صغرها كانت تحمل بعض الأفكار، حول الثقافة الفرنسية، كونتها من أقاربها المهاجرين إلى الخارج حيث كانت تزورهم عندما يعودون إلى تونس وتتبادل معهم الحديث حول مواضيع مختلفة تهم فرنسا كالدراسة والعادات والأماكن السياحية.

إن تنشئة ملاك داخل العائلة أو مع الأقارب جعلها تتأثر بالثقافة الفرنسية، فلم تكن صورة هذا البلد غريبة عنها وحتى بعد استقرارها لم تشعر بالغربة ولم تتعرض إلى مشكلة اندماج أو تأقلم. إضافة إلى أن المحيط الذي تربت فيه منذ الصغر يعتبر حاضنا لفكرة الهجرة، فجرجيس منطقة تشجع على ذلك.

راهنت العائلة على تميز ملاك. ووفرت لها جميع إمكانيات النجاح. فالهجرة من أجل العلم نوع من «الاستثمار» المعرفي في الأبناء. ويعتبر رهانا لدى العديد من العائلات التي تبحث عن رأس مال رمزي في المجتمع.

2. مسار تجربة الهجرة وأفقها : المعرفة أولا

كان هاجس النجاح لدى ملاك معرفيا بدرجة أولى. فاختيارها للدراسة بفرنسا كان بمثابة إعادة انتاج لتفوّق لم يتحقّق في تونس. فالنجاح الإجتماعي للفرد حسب مبحوثتنا ليس مرتبطا بالتفوق المادي فقط بل تعتبر المعرفة أيضا مظهرا من مظاهر النجاح. فالتحولات التي شهدها المجتمع خاصة في السنوات الأخيرة عبر سياسة التعليم الشامل ودمقرطة المعرفة، جعلت من العلم قيمة مهمة. فالمعرفة أصبحت رهانا داخل حدود الوطن وخارجه. وهذا ما يفسّر تنامي ظاهرة الهجرة من أجل طلب العلم خاصة في السنوات الأخيرة.

1.2. حب التميز سبب للهجرة

راودت فكرة الهجرة ملاك عندما تحصلت على إجازة في الوساطة والتنشيط الثقافي سنة 2015. حيث وجدت نفسها أمام مستقبل يكاد يكون مجهولا. بالاضافة الى أنّها لم تكن مقتنعة بالمسار الدراسي الذي اختارته منذ البداية. كما أنّ التكوين الذي تلقته في العلوم الفنية والإنسانية (وهي شعب صعبة الإدماج في سوق الشغل) مثل لها عائقا أمام تحقيق تميزها.

لم يكن اختيار ملاك للدراسة في المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي ببئر الباي يمثل بالنسبة إليها وسيلة للتفوّق أو التميّز، لذلك ساهمت خيبة أملها في مسارها الدراسي في إعادة إنتاج مسار دراسي جديد في المهجر، فالطموح الذي رسمته ملاك منذ صغرها لم يتحقق بدراستها التنشيط لذلك شعرت بعد تخرجها بالرغبة في اختيار اختصاص آخر. وهذا لم يكن اختيارا شخصيا فقط بل عائليا أيضا فالوالدان اعتبرا الهجرة إلى فرنسا بمثابة "إنقاذ" لابنتهما من أفق محدودة في تونس.

ويعتبر حب التميز والتفوق سببا رئيسيا لهجرة ملاك فالطموحات العائلية لم تكن محدودة بمجرد وظيفة بتونس أو الحصول على إجازة بل ببلوغ أعلى مستوى معرفي لابنتهما. فتقدير المعرفة أمر مقدّس ومطلوب في عائلتها. كما ان ملاك بعد تخرجها لم تقتنع بالمسار الدراسي الذي اختارته بالشكل الكافي فلو درست اختصاصا مغايرا بجامعة أخرى وخاصة الاختصاصات العلمية بجامعة خاصة ماكانت لتختار الهجرة.

إن هاجس التفوق بقي دائما محددا في كل اختيارات ملاك فحبها للدراسة بجامعة باريس "كريتاي" كان رغبة منها في إعادة مسار دراسي جديد يجعلها تتجاوز خيبة الأمل التي شعرت بها بعد تخرجها من التنشيط، لذلك بدأت فكرة الدراسة في الخارج تراودها. كما أن مشكل انتظار الشغل والتوظيف بالقطاع العام مثلا كان سببا آخر أكّد رغبة ملاك في الهجرة خاصة وأنّ خريجي التنشيط لا يمكن لهم العمل إلا بوزارة الثقافة أو الشباب وهذا شبه مستحيل بعد ازدياد عدد الخريجين وبطالتهم منذ سنوات[12].

إن خيبة الأمل لدى ملاك في اختيارها شعبة التنشيط التي لم تكن تتوافق مع الطموحات العائلية والشخصية المرسومة جعلها تسعى قدر الامكان الى أن تجعل تلك الخيبة نجاحا جديدا في المهجر. فالتنشيط رغم كونه اختصاصا له دور مهم في المجتمع إلا أنه لا يحظى بالاعتراف الاجتماعي والمؤسساتي ولا ينتج

[12] حسب سجل الخريجين الموجود لدى ادارة المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي ببئر الباي فإن عدد المعطلين (غير المنتدبين مباشرة بوزارة شؤون الشباب أو الثقافة) يقدر بحوالي 1000 منشط (اختصاص شبابي وثقافي من دفعة 2010 إلى 2019).

أفاقا مهمة على غرار غيره من الاختصاصات "النبيلة". فمجتمعنا التونسي يحصر دائما المنشط أو المربي في إطار "الصنعة" والمهنة التي لا تتطلب جهدا فكريا ولا معرفيا وهذا احتقار لتكوين المنشط الذي يقضي أربع أو خمس سنوات في الجامعة.

فالفوارق الموجودة بين العديد من الشعب والاختصاصات مرتبطة أساسا بالدور الذي تضطلع به كل شعبة ذلك أنه توجد اختصاصات هامة ومحورية وأخرى هامشية. فاليوم لا أحد ينكر أن الشعب الأدبية والفنية تعتبر هامشية مقارنة بالطب أو الصيدلة وغيرها. وهذا التمييز ليس اعتباطيا بل هو مرتبط بقيمة المهنة ومدى حاجة الناس اليها، وعلى سبيل المثال تنتدب وزارة الصحة مئات الأطباء مقابل انتداب عدد قليل من المنشطين بتعلّة أنّ قطاع الصحة حيوي منتج والآخر هامشي.

وتعتبر مسألة الاعتراف الاجتماعي بالتخصص مهمة لفهم ظاهرة الهجرة، فالتمييز بين المهن والوظائف يعتبر مشكلا. فهجرة ملاك تنبع من رغبتها في استعادة القيمة العلمية والاجتماعية التي لم تجدها في تونس، إضافة إلى مايوليه[13] وسطها العائلي والاجتماعي للرأس المال الدراسي عموما. فالمعرفة وحب التميز مثّلا بالنّسبة إلى ملاك رهانا شخصيا وعائليا لذلك لم يكن تخرّجها من المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي نقطة نهاية بل كان حافزا لانطلاقة جديدة في المهجر. فثقافة النجاح ظلت حاضرة تقريبا في كل القرارات التي تتخذها ومنصهرة في الالتزام العائلي.

2.2. التميز المهني والمعرفي وقرار الإستقرار

تشتغل ملاك حاليا في المجال الاجتماعي ضمن مركز لاحتضان فاقدي السكن بفرنسا في إطار التربص الذي تقوم به، كما أنها ترغب في مواصلة مسارها الدراسي وحصولها على شهادة الماجستير التي هي بصدد إعدادها والعمل في نفس

[13] يعود استعمال مفهوم الرأسمال الدراسي إلى عالم الاجتماع الفرنسي «بيار بورديو» ، ويقاس بمجموع الشهائد ومستوى التحصيل العلمي الخاص بكل فرد. انظر :

Pierre Bourdieu، *La Distinction : critique social du jugement*، Paris، Ed de Minuit، 1979، p. 12.

المجال، وخاصة التخصص في مجال الهجرة، وكل ماهو مرتبط بالمهاجرين إيمانا منها بأن قضية الهجرة تعتبر قضية محورية بل هي موضوع الساعة، زد على ذلك انها تحب هذا المجال وترغب في مساعدة الأطفال المهاجرين واللاجئين إمّا بسبب الحروب أو لأسباب اجتماعية مثل الفقر والبطالة وغير ذلك.

والجدير بالذكر أنّ ملاك إشتغلت بمخبزة رغبة منها في تحقيق استقلالها المادي، فهي واعية بأن العمل في المهجر ضروري كي تستطيع تلبية حاجياتها، ورغم أن والديها يستطيعان الإنفاق عليها إلا أنها تريد أن تعوّل على نفسها، فخلال السنوات الأخيرة لم تطلب المساعدة المادية من والديها إلا في حالات قليلة وذلك بمعدّل مرة أو مرتين في السنة.

كما استطاعت ملاك أثناء استقرارها في المهجر مواكبة العديد من التظاهرات والعروض الثقافية بالرغم من عدم وجود وقت فراغ كاف. فمثلا قدمت لها العديد من الدعوات لحضور مسرحيات وحفلات إضافة إلى كون الثقافة في فرنسا متاحة للجميع بصفة مجانية، فالساحات دائما مليئة بالعروض الموجهة للعموم. إضافة إلى أن ملاك كونت أصدقاء خصوصا من خارج فرنسا حتى تتمكن من ايجاد مرافقين لها تتجول معهم وتخرج للفسحة فحاجتها للأصدقاء تعتبر أمرا مهما بالنسبة إليها رغم حنينها الخاص إلى أصدقائها بمعهد التنشيط الشبابي والثقافي إذ قالت إنّ هؤلاء فقط يمكن أن نسميهم أصدقاء حقيقيين.

إن استقرار ملاك مهنيّا ودراسيّا وتكوينها لشبكة من العلاقات جعلا من فكرة العودة الى تونس أمرا مرفوضا بالنّسبة إليها حيث أن اشتغالها الآن في مركز لاحتضان فاقدي السكن وحبها للمهنة جعلاها غير قابلة لفكرة الرجوع إلى تونس. كما أن قدرتها على التكلم باللغة العربية والانكليزية مثّلت لها حافزا مهما للتميّز في هذا المجال وإمكانيّة العمل في بلدان مختلفة. كما أن شغل ملاك لم يجعلها تنقطع عن الدراسة بل كانت مهتمة بمواصلة البحث وإعداد رسالة الماجستير التي تشرف عليها أستاذة فرنسية مختصة في علم الاجتماع بجامعة باريس "كريتاي" .

لم تكن ملاك في الأشهر الأولى لهجرتها رافضة لفكرة العودة الى وطنها فقد جاءت إلى تونس عديد المرات إما لزيارة أهلها أو بسبب الحنين إلى بلدها، فقد ظلت متعلقة بتونس وبأصدقائها الذين درسوا معها. لكنها الآن وبعد استقرارها

الدراسي والتزاماتها المهنية أصبحت غير قابلة للعودة ولها طموح إلى أن تواصل دراستها بمرحلة الدكتوراه وتحقق تميزها. كما أن وجود أقاربها في فرنسا وخاصة أخيها الذي تلتقي به دائما جعلها تعيش تقريبا في جو عائلي فلم تشعر أنّها غريبة أو وحيدة في بلد أجنبي بل أكدت على أنه لا يوجد فرق كبير بين تونس وفرنسا، فحتى العادات الدينية والثقافية الموجودة في تونس توجد أيضا في فرنسا، فالعائلة التي تقطن معها ملاك ملتزمة بالتقاليد وبقيت تعيش تقريبا في نفس النمط الموجود في تونس.

وإنّ انتماء أقارب ملاك إلى جهة جرجيس بالجنوب التونسي يعتبر سببا رئيسيا في حفاظهم على العادات وهويتهم المحلية والاندماج الإيجابي مع الفرنسيين. فوجودهم بالمهجر لم يؤثر على سلوكهم وطقوسهم الخاصّة بالمناسبات الدينية فقد ظلوا يعيشون أجواء رمضان وعيد الأضحى كما يعيشها التونسيون وحتى الأبناء تلقّوا تربية خاصة تقوم على تثبيت الهوية العربية والإسلامية.

إنّ الطموح الشخصي والعائلي لملاك جعلها تبقى في فرنسا، فهي تمنّت لو أنّها سافرت إليها منذ تحصلها على الباكالوريا لتحقيق ما تريده. طالما أن الدراسة بتونس بالنسبة إليها لا تحقّق أفقا مهنيا. فالهجرة اليوم أصبحت تمثل "الهروب" من مستقبل شبه غامض ومصير مجهول يعيشه أغلب الشباب التونسي الذي أصبح يمثل "*الجيل الضائع أو جيل الأزمة أو جيل المعاناة*"[14].

الخاتمة

إنّ الطموح وحب النجاح من أهم ما يميز شخصية ملاك. فخيبة الأمل التي أصابتها بعد دراستها في تونس كانت عنصر قوة لانطلاقة جديدة بجامعة "كريتاي". وحبها للتفوق والمعرفة جعلاها دائمة البحث عن طريق جديد. فالمهجر لم يمثل عائقا كبيرا أمام طموحاتها بل استطاعت من خلاله تحقيق النجاح بعد اشتغالها الآن بمركز لفاقدي السكن ودراستها بمرحلة الماجستير.

---

[14] المنجي الزيدي، ثقافة الشارع : *دراسة سوسيوثقافية في مضامين ثقافة الشباب*، تونس، مركز النشر الجامعي، 2007، ص. 17.

لم تظفر ملاك بالاعتراف الاجتماعي بعد حصولها على شهادة في التنشيط إذ لم يكن هذا التخصص في مستوى الطموحات الشخصية والعائلية، لذلك اختارت المهجر كبداية لمسار النجاح. وحتى عائلتها لم تمانع فكرة الهجرة. وذلك رغبة منها في بلوغ ابنتهم أعلى مستويات المعرفة والتميز. فحب ملاك للمعرفة هو ثقافة عائلية نشأت عليها منذ صغرها.

ويمكن القول إنّ الهجرة من أجل المعرفة اصبحت تندرج ضمن إستراتيجية العائلة لتحقيق تميز الأبناء، فالعائلات التونسية اليوم أصبحت تستثمر أموالها وجهدها في مستقبل أبنائها وتراهن على نجاحهم مهما كانت التكاليف. فالحاجة ليست مادية بدرجة أولى بل أيضا معرفية ورمزية. فتفوق الابن في دراسة الاختصاصات "النبيلة" بالمهجر يعتبر "رأسمال" يحقق للعائلة موقعا اجتماعيا مهما.

إن هجرة ملاك في الأصل رحلة شابة تونسية لم يتحقق لها حلم التفوق في بلدها، فاختارت البحث عن الاعتراف الاجتماعي في المهجر، هذا الاعتراف مثّل هدفا رئيسيا لهجرة العديد من الكفاءات التونسية التي غادرت البلد لتحقيق طموحاتها فنسبة الشباب المهاجر في الفترة الممتدة ما بين أفريل 2009 و2014 بلغت 73.7% من مجموع المهاجرين[15]. لذلك تعتبر هجرة الكفاءات اليوم من أهم القضايا المطروحة على المستوى الوطني طالما أنها في ارتفاع مستمر وتوحي بغياب استراتيجية واضحة للحدّ منها. فالهجرة ليست فقط عن طريق "قوارب الموت" بل أيضا أصبحت منظّمة وتنخرط فيها العائلة كحلّ لإنقاذ الابناء من آفة البطالة والفشل المهني.

المراجع

الدرويش الحبيب ، *دراسات في قضايا التنشئة و التمكين والاندماج*، تونس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صفاقس، 2010.

الرقيق فتحي، *من مرونة العمل إلى مدينة المشاريع : مقاربة سوسيولوجية*، تونس، دار محمد علي للنشر، الطبعة الأولى، 2009.

[15] Recensement général de la population et de l'Habitat 2014، volume5 : Caractéristiques migratoires، *op. cit.*، p. 20.

الزيدي المنجي، *ثقافة الشارع : دراسة سوسيوثقافية في مضامين ثقافة الشباب*، تونس، مركز النشر الجامعي، 2007.

السحباني عبد الستار، الشباب والهجرة غير النظامية في تونس : دراسة ميدانية للتمثلات الاجتماعية والممارسات والانتظارات، تونس، منشورات المنتدى التونسي للحقوق الإقتصادية والاجتماعية، ديسمبر 2016.

Abbott Andrew, *The System of Professions*, Chicago, University of Chicago Press, 1988.

Bourdieu Pierre, *La Distinction :critique social du jugement*, Paris, Ed de Minuit, 1979.

INS, *5 HFHQVHP HQW Q UDOGH OD SRSXODWLRQ HWGH Ø+ DELWDW* , YRXSPH &DUDFWULVWLTXHP LJUDWRLUHV 7XQLV DV

-RXGLQ $QQH1 DXQQ 6LGRQH d + UWH HWWDQW P LWLRQGLQVOD sociologie de Pierre Bourdieu□ *IQ ,G HV(FRQRP LTXHVHW6RFLDOHV*, Nç 166, 2011/4, pp. 6-14.

. DXP DQQ-HDQ &DXGH/ *øHQHWHQ FRP SUKHQVL*, Paris, Armand Colin, 2011.

0 DXW0 DUFHd (WLVXUHGRQ) RP HHWDLVRQGHØ FKQJHGQV OHVRHL WVDUFKaTXH□ *in Sociologie et Anthropologie*, Paris, PUF.

Menger Pierre-Michel, *Les professions et leurs sociologies*, Paris, □ditions de la Maison des sciences de lêhomme, 2003.

طموح مهاجرة[1]

نهلة عكريمي[2]

المقـــدمـــة

إنّ ظاهرة الهجرة هي من الظواهر المميزة للمجتمع التونسي منذ ستينات القرن الماضي وقد اقتصرت سابقا على الذكور دون الاناث وقد حكمتها دوافع اقتصادية بالاساس ، بيد أنّها شهدت في السنوات الأخيرة تحولات نوعية بعد أن أصبحت تمسّ العنصر النسائي وذلك لارتفاع نسبة الفتيات المهاجرات والتي بلغت في السنوات الأخيرة نصف عدد المهاجرين[3] وهذا ما ساعد على التخلص من الصورة النمطية للمرأة خاصة في الجنوب التونسي الذي يتميز بعادات وتقاليد اجتماعية وثقافية محافظة حدّت من حرية المرأة ورسمت لها حدود عالمها الضيق مما حرمها طيلة السّنوات الماضية من التّحرّك خارج حدود بيئتها الضيقة. إلاّ أنّ التغيرات الاجتماعية والإقتصادية والثقافية التي شهدها المجتمع التونسي دفعت نحو مزيد االانفتاح على المحيط الخارجي وتنمية روح المبادرة خاصة لدى المرأة مما ساعدها على السفر خارج حدود الوطن أين يصبح بإمكانها أن تثبت ذاتها وتحقق طموحاتها التي لا يمكن أن تبلغها دون مغادرة حدود مجتمع ضيق يمنعها من أن تتصرف بحرية أو أن تغير الأطر الاجتماعية والنواميس الثقافية، وهذا ما أفضى إلى ظهور نموذج اجتماعي جديد تتجسد فيه المرأة لا كأنثى فقط بل كفاعل اجتماعي يسعى إلى المغامرة وبلورة حياة مختلفة وفق أهداف خاصة بعيدة كلّ البعد عن الأفكار النمطية

---

[1] أنجزت هذه الورقة تحت إشراف الأستاذة حميدة طرابلسي باشا في إطار ورشة الكتابة التي نظمتها جمعية تونس الفتاة بالتعاون مع منظمة كونراد أديناور خلال شهري جويلية وسبتمبر سنة 2019

[2] نهلة عكريمي، متحصلة على شهادة الأستاذية في علم الاجتماع، ناشطة في المجتمع المدني، وتعمل منتجة خارجية بإذاعة قفصة وطالبة مرحلة ثالثة اختصاص تغيرات اجتماعية.

[3] Erving Goffman، *The Presentation of the self in Everday life*، New York Anchor Book، 1959، pp. 249–255.

[3] حسب دراسة قام بها صندوق الامم المتحدة للسكان 12 ابريل / نيسان 2018 /https://arabstates.unfpa.org

التقليدية التي حرمتها سابقا من بلوغ ما تبتغيه. وقد تعددت العوامل المساعدة على نجاح تجربة الهجرة من قبيل تلاقح الاجناس والثقافات المختلفة بفضل انفتاح المجتمعات الغربية مما عزز قابلية الفاعلين الاجتماعيين واستعدادهم للتغير والتجديد، وتتعدد التجارب الدالة على انتشار هذا النموذج الحداثي للهجرة ومنها تجربة سندس التي تمكنت من تجاوز كلّ مرفوض وتحدي الأفكار السائدة بجهتها لتنسج تجربة ذاتية ناجحة ساعدت على تغيير صورة المرأة في مجتمعنا التّونسي.

ولنتعمق اكثر في فهم هذه التجربة اعتمدنا على منهج المقابلة التّفهميّة التي أحدثها كوفمان والتي تعدّ التقنية الأمثل لفهم مثل هذه الظواهر، فهي تمكّن الباحث من التعرف على مشاعر الفرد وانفعالاته، وكذلك اتجاهاته وميولاته حتّى نتوصّل إلى فهم دواخل المبحوثة سندس وما مرتّ به من أحداث شجعتها على الهجرة، لنتعرف من خلال ذلك على دور ظاهرة الهجرة في كشف التحولات التي تشهدها المرأة اليوم ومن ثمّ ترسيخ مقاربة النوع الاجتماعي. إنّ اعتمادنا على هذا المنهج يمكّننا من الوقوف على ثلاثة مستويات قصد فهم خطابات الفاعل وتحليلها للتعمق اكثر في موضوع البحث وصياغة خطاب علمي يستجيب لمتطلباته السوسيولوجية : يتمثّل المستوى الأوّل في اللغة أي المخاطبات والمفردات وهذا ما يمكننا من الارتقاء إلى المستوى الثاني وهو الفهم ثمّ المستوى الثّالث وهو المستوى النظري ويتمّ فيه فهم المعطيات وتحليلها ونمذجتها.

وسنعمل من خلال هذه الورقة البحثيّة على الإجابة عن أسئلة محوريّة تتلخّص فيما يلي : إلى أي مدى تمثل الهجرة نوعا من الانفتاح وتجسيدا لروح المبادرة والمغامرة ؟ وهل أنّ التأقلم البرغماتي نتيجة للهجرة أم هو مجرد وسيلة لبلورة مشروع حياتي ؟ وكيف مثّل التمركز حول الذات دافعا لتحطيم الصورة النمطية للمرأة ؟

1. شخصية مغامرة وقادرة على الانفتاح والمبادرة

تساعد الشخصية القوية على رسم طريق للنجاح والإقدام على عدد من المغامرات والمبادرة وهذا ما نتبينه في شخصية سندس.

1.1. الإصرار على النجاح

سندس تبلغ من العمر 33 سنة تلقت تكوينا أكاديميا في اختصاص الموسيقى لكنّها رأت أنّ هذا الاختصاص لن يمكّنها من بلوغ ما تبتغيه من طموحات، فهي ترغب في الوصول إلى أعلى المصعد الاجتماعي[4] بحيازة مكانة هامة داخل مجتمع يربط قيمة الأفراد بما يقومون به من أدوار، ومن أجل هذا الهدف قامت بتكوين ثان في صناعة النظارات الطبية استجابة لطموحاتها المهنية.

وبفضل دعم أسرتها التي كانت ميسورة الحال، تمكنت من بعث مركز لصناعة النظارات الطبية دون قروض أو صعوبات تذكر، مما مكنها من تحقيق الربح المادي الوفير، ولم تقف عند هذا الحدّ بل طوّرت عملها من خلال بيع النظارات، ورغم أنها لم تكن تفكّر في تحقيق هذا الحلم سابقا لكنها أقدمت عليه بكلّ شجاعة رغم أنه كان في جانب كبير منه إرضاء للأسرة لأنّ أحلامها كانت أكبر من هذا بكثير، كما أنّ محاولتها للهروب من إشكالية انتظار الوظيفة العمومية والتخلص من شبح البطالة زادت من حرصها على إنجاح مشروعها وشجعها على القيام بعديد الدورات التكوينية في هذا الاختصاص. وتذكر سندس أنّ رغبتها في تحقيق المزيد من الثراء والانضمام الى الطبقة الراقية وتجاوز كل العوائق والضوابط الاجتماعية المتعارف عليها، دفعها لخوض تجربة الهجرة نحو دولة عربية عن طريق تقديم طلب لشركة في الخليج، ورغم أنّ هذه التجربة كانت غامضة المصير إلاّ أنّ سندس أقدمت عليها لما اتسمت به شخصيتها من روح المغامرة. ورغم أنها كانت الفتاة الوحيدة لدى عائلتها ورغم أنّ أمّها كانت تعاني من عدة أمراض مزمنة، إلاّ أن ذلك لم يكن عائقا أمام مشروع ا الهجرة بالنّسبة اليها، بل تعاملت مع المسألة بكل أريحية، وأجرت المقابلة مع شركة التوظيف، ومثّل هذا اللقاء بداية المرحلة الانتقالية في حياتها، إنها بداية أمل، بداية حلم طالما راودها، إنّه حلم الهجرة الذي ظلت تنتظر تحقيقه على أرض الواقع. وظلّت تنتظر ردّ الشركة بشغف لتصل إلى هدفها الوجودي المتمثل في "النجاح

[4] Pierre Bourdieu et Jean–Claude Passeron، *Les héritiers، les étudiants et la culture*، Paris، édit .Minuit، 1964.

والتميّز"[5]، وبعد فترة وقع مدّها بالموافقة وتمكينها من عقد عمل كمديرة مبيعات بشركة عالمية، هذا العقد جاء في الوقت المناسب، وقت عاشت فيه البلاد التونسية تجاذبات سياسية واقتصادية[6] كان من الممكن ان يكون لها تاثيرات سلبية على مشروعها. مما جعل الهجرة الى الخارج الطريقة التي ستساعد سندس على نحت ذاتها من جديد وإثبات قدراتها كفاعل اجتماعي[7] وكامرأة ليست ككلّ نساء الجنوب اللاتي مازلن إلى اليوم، ورغم التحولات الاجتماعية الهامة يخفن من خوض أية مغامرة لتغيير واقعهنّ الصعب المرير. وتؤكّد سندس أنّه بمجرّد وصولها إلى المطار انتابها شعور غريب تمتزج فيه السعادة بالخوف، بين حلم يسكن أعماقها وواقع غامض ينتظرها، لكنّ قوّة شخصيتها وإصرارها على النجاح زادا من إصرارها على خوض هذه المغامرة مهما تكن نتائجها.

2.1. شخصية طموحة

عبّرت سندس أكثر من مرة عن رغبتها في التالق : "نحلم" "انحب نولّي" "نحب نكسب" "انحب نعمل"... وأكّدت في كل مرحلة من مراحل عملها أن الشهادة العلمية التي تحصلت عليها ليست إلا إستراتيجية طوعت بها القدر .

لم يكبّلها اختصاصها العلمي ولم يعق مسار تألقها والدليل أنها تأقلمت اكثر من مرة مع أعمال لا تجيد أبجادياتها.

تضيف سندس أنّ حب التميّز والتجديد هما اللذان كانا يدفعانها لخوض تجربة عملية جديدة لتثبت في كل مرة أنها جديرة بهذا المنصب وأنّها قادرة على التألّق فيه وتحقيق الاستثناء، تذكر سندس أنه خلال فترة عملها كمعدة نظارات طبية حققت نسبة أرباح مرتفعة جدا إضافة إلى كونها حظيت بمصداقية أغلب نقاط البيع على المستوى الجهوي. إلاّ أنّ هذا النجاح لم يرض طموحها ولم يحقق اكتفاءها وحلمها في التألّق فظلت تبحث عن تجربة جديدة قد تجدها في دولة الخليج

---

[5] محمد الناشي، : *مدخل إلى السوسيولوجيا البراغماتية*، ترجمة ميلود طواهري، سلسلة نديم للترجمة، ابن نديم للنشر والتوزيع – الجزائر، الطبعة 1 2014.

[6] عبد الله بلعباس، «ظاهرة الهجرة عند عبد المالك الصياد، من السياق التاريخي الى النموذج السوسيولوجي»، *مجلة انسانيات*، عدد 62، سنة 2013، ص ص. 25–38.

[7] باقر النجار، *سوسيولوجيا المجتمع في الخليج العربي*، بيروت، الكنوز الأدبية، 1999، ص. 2.

من خلال عرض شركة التوظيف. وتستحضر سندس أن خطيبها أمير والذي ارتبطت به قبل سفرها الى الخليج العربي بسنة هو المشجع الرئيسي لها باعتباره غادر هو كذلك البلاد التونسية بعد حصوله على شهادة في الفندقة والسّياحة، وقد هاجر إلى بلد خليجيّ وذلك قبل الثورة التونسية أي قبل 2011 ولكن ليس نفس البلد الذي ستقيم فيه سندس وتعمل. وتضيف سندس أن خطيبها آنذاك قام بشراء عقد عمل من رجل أعمال يقوم بتسفير الشباب المعطلين مقابل خمسة آلاف دينار.

وتذكر سندس أنها عملت كمديرة مبيعات لمدة 08 سنوات متتالية وكانت في نهاية كل سنة تتوج كأفضل مديرة في مجال عملها. والتتويج حسب سندس ليس هدفا بل هو إستراتيجية للخروج من المعاناة الاقتصادية واختيار بديل آخر لمقاومة كل العوائق والضغوطات الاقتصادية. ورغم الأرباح المادية إلاّ أنّ "الأنا الفاعلة" ظلّت تتضخّم ولم تستوعبها الأطر الضيقة، اذا لم تكن تعتبر طموحها قد تحقق فمازالت لها رغبة جامحة في التألق لذلك بحثت عن تجربة العمل في دولة الخليج من خلال عرض شركة التوظيف علّها تحقّق حلمها التائه.

وأكّدت سندس في عديد المرات أنّها لم تخطّط لحلمها بل هو استراتيجية للصعود إلى سلم الإبداع والتألق بكل ثقة في النفس وبشيء من الثبات.

كما صرّحت بأنّ ظروف إقامتها أفضل بكثير من ظروف إقامة خطيبها وهذا ما جعلها تسعى جاهدة للبحث عن عمل بديل له، واعتبرت رحلة بحثها عن عمل لخطيبها في نفس البلد الذي تعمل فيه ما هو إلاّ جزء من طموحها المادي والمعنوي وقد ظلّت سندس سنوات وهي تبحث دون ملل أو كلل.

وقد طوّعت القدر بإرادتها وعزمها المتواصل في رحلة البحث عن عمل لخطيبها عندما تحصّلت له على وظيفة شاغرة بأحد الفنادق الفاخرة. وقد بعث ذلك في كليهما سعادة غامرة، وتسلم أمير عمله الجديد وكلّه رغبة في مسايرة سندس في طموحها وتشجيعها على مواصلة نجاحها وتألقها.

وذكرت سندس أن تنقل خطيبها وإقامته بنفس البلد حطّم كل الحواجز التي كانت تعيق ارتباطهما.

وأكّدت سندس في عديد المرات أنّ طموحها لم تخطط له بل هو وليد الظروف التي كانت في خدمتها في أكثر من مرة، وتعتبر دعم خطيبها المتواصل

بمثابة الحافز لها إذ ترى سندس أن موافقته المطلقة على الانتقال إلى بلد إقامتها خير دليل على التشجيع إضافة إلى دعمه المعنوي المتواصل لها.

2. التأقلم البراغماتي بين بلورة مشروع حياتي ونتيجة الهجرة

ترى سندس أنّ الهجرة لم تكن بالنسبة إليها شبحا مخيفا كما يخيّل للبعض أو بعدا عن الأهل وحرمانا من الروابط الاجتماعية بل رأتها نقطة انطلاق لم تخطط لها بقدر ما كانت وليدة الظروف التي ساعدتها ودفعتها لفكّ رموز عالم غامض.

ورغم أنّ سندس هي البنت الوحيدة لأمها وأبيها، وأنّ والدتها تعاني من عديد الأمراض المزمنة كما سلف الذكر إلا أنّ كل هذا لم يثنها عن خوض تجربة الهجرة، فغادرت أرض الوطن و العائلة تاركة وراءها والديها وبقايا حلم مشروع نقطة بيع النظارات الطبية والذي تؤكد سندس أنه كان انطلاقة لها في عالم الأعمال وأنّها حافظت عليه لا لشيء إلا لأنّه كان يخالجها بعض الخوف الداخلي من شبح الهجرة إلى دول الخليج وما يمكن أن يعترضها من عقبات هناك ومن عدم ملاءمة ظروف العمل لما جاء في العقد الذي أبرمته في تونس. وعندما تسترجع سندس ذكريات مغادرتها لتونس تؤكد انه رغم تشجيع خطيبها وعائلتها للتفويت في المشروع وطي صفحته وبداية صفحة جديدة إلاّ أنها رفضت وأصرّت على إبقائه على ملكها لأنّه قد يكون مرفأ النّجاة بعد رحلة مبهمة. وقد صارعت سندس إحساس الغربة بالعمل وواجهت الحنين إلى العائلة بالتألق و التميّز. وظّلت بذلك لعدة سنوات تشغل منصب مديرة مبيعات بشركة تجارية.

وعبرت سندس عن ارتياحها لالتحاق خطيبها بها ليعملا معا مدة سنوات دون انقطاع ودون العودة إلى أرض الوطن. وأكّدت أنّ منصب مديرة المبيعات كان مسؤولية مهنية هامة أخذت كامل وقتها ولم تبد تذمرها من عب ء العمل بل كانت في كل مرة تراهن على تألّقها وتميّزها. وهو ما جعلها تتحصل على ترقية مهنية تعادل منصب "مديرة علاقات دولية" وهو منصب أسعدها كثيرا رغم أنها لم تخطط له بل كان نتيجة لمخطط داخلي راودها منذ وطئت قدماها سلّم الطائرة لتعود بثمن غربتها معنويّا وماديّا.

تقول سندس إنّ المنصب الجديد فرض عليها جملة من الممارسات المهنية من ذلك مثلا التنقل الدائم بين دول الخليج العربي و خاصة الدول التي يوجد بها

المقر الاجتماعي وقد ألزمها هذا التنقل البقاء لمدة أشهر بعيدة عن خطيبها الذي تركته وحيدا في عمله.

كلّ هذه الظروف لم تقلّل من عزيمتها و شغفها بعملها بل زادتها إصرارا على مواصلة التألّق. وهو ما عبّرت عنه السوسيولوجيا البراغماتية بأنّها تأخذ بعين الاعتبار قدرة الفاعلين على التكيف مع الأوضاع المختلفة للحياة الاجتماعية فما يميّز البراغماتية أنّها ترى أنّ الفاعلين هم أشخاص تتنوع أحوالهم بحسب الوضعيات والسياقات. وقام بلتانسكي بشرح المعنى الحقيقي للفعل الإنساني من خلال تفسير المواقف التي تدفعهم لممارسة ذلك الفعل[8].

3. التمركز حول الذات وتحطيم الصورة النمطية للمرأة

"سندس" لم تخطّط لمشروع حياتها بل كان نتاجا لإصرارها وعزيمتها على النجاح، حيث وضعت هدفها في الحياة ونجحت في الوصول لما تبتغيه. تحدت سندس كل الصعاب وأقدمت على خوض مغامرات متنوعة لتحقيق طموحها وغايتها الوصول إلى المجد والعظمة حسب بلتانسكي[9].

اعتبرت سندس أنّ طموحها ورغبتها في تحقيق الذّات فرضا عليها ضرورة التجرّد من الانتماء الطفولي الحنيني للعائلة وبالتّالي الإعلان عن تجاوز العوائق الاجتماعية .

تناست سندس مرض أمها رغم أنها ابنتها الوحيدة .وسافرت إلى الدولة الخليجية وكلها إصرار على تحقيق هدفها مهما كلفها ذلك. مكابدة خطر التنقل من دولة إلى دولة والحال أنها المرة الأولى التي تغادر فيها أرض الوطن وظلت سندس أربع سنوات تشغل منصب مديرة مبيعات وخطيبها في قطر عربي آخر ولم يزدها ذلك إلا إصرارا على النجاح ورغبة في نحت كيانها.

وعندما وجدت أنّ الظروف المادية والمعنوية رائعة فكرت في خلق فرصة عمل لخطيبها آنذاك. وبحثت عن الفرصة في مختلف المجالات الاقتصادية ولم

---

[8] Luc Boltanski، *De la critique : Précis de sociologie de l'émancipation*، Gallimard، Paris، 2009.

[9] محمّد الناشي، مرجع سابق.

تيأس ولم يثنها طول الانتظار عن منح خطيبها فرصته. فقد خلقت الفرصة وطوّعت القدر ثم قاما كلاهما بالإجراءات القانونية للالتحاق بفرصة العمل الجديدة.

تقول سندس إنّ الهدف من عمل خطيبها في نفس الدولة هو تسهيل عملية الزواج. وقد عادت سندس صحبة خطيبها إلى أرض الوطن بعد غياب دام اربع سنوات بالنسبة إليها أما بالنسبة إليه فثمان سنوات وذلك لإتمام مراسم زواجهما ولم تعر "سندس" حدث زواجها اهتماما وحيزا زمنيا هاما بل اعتمدت على أمها والأقارب لإتمام الإجراءات ومراسم الاحتفال وأنهت سندس هي وزوجها مدة الإجازة وعادت إلى مكان عملها ولم يزدها الزواج إلا إصرارا على نحت ذاتها ومواصلة مشوارها فقد ظلت سندس تبحث في أروقة طموحها عن أمل ظلّ يراودها منذ مغادرتها أرض الوطن للمرة الأولى. زواج سندس لم يكن بحثا عن إرساء مؤسسة الزواج بالمقاييس المجتمعية بل مرحلة لا بد أن تتخطاها لتصل إلى المرحلة الثانية من أحلامها. فقد ذكرت سندس أن زوجها كان يشجعها في كل الخطوات التي تتخذها. ومرّت الأشهر والسنوات بعد الزواج لكن إحساس الأمومة لم يتسلّل بعد إلى مشاعرها فقد كان الحظ في كل مرة يرمي في طريقها طوقا يقودها إلى العظمة وينسيها حلم الامومة.

تحصلت سندس على منصب في المقر الاجتماعي للشركة التي تعمل فيها مكلفة بالعلاقات الخارجية هذا المنصب سيدفع بها إلى السفر إلى بلد مجاور والمكوث فيه لأشهر وربما أكثر لكنها لم تعر الفترة الزمنية اهتماما بقدر ما رحبت بالمنصب واعتبرته نتاجا لسنوات من العمل المتميز.

انتقلت سندس للعمل في المقر الاجتماعي تاركة وراءها زوجها الذي أبدى تشجيعه لاختياراتها المهنية و الاجتماعية وقبوله بها. وقد تغاضت سندس عن رغبتها في الامومة وهو تغاض تقاسمته مع زوجها الذي كان يتعلل مثلها بالمصاريف المجحفة التي تتطلبها الولادة والحضانة في دول الخليج اضافة الى ما ستسببه مسؤوليات الامومة من عوائق اجتماعية.

سافرت سندس الى بلد آخر وكلها رغبة في تحقيق حلم يراودها وهو الوصول إلى أرقى المراكز والمراتب. تقول سندس أنها استفادت الكثير من عملها كمديرة مبيعات ومن تبادل الخبرات. لم تمتثل سندس للضوابط الاجتماعية

ولتقسيم الأدوار المجتمعية بل حطمت كل ما من شأنه أن يعيق طموحها ورغبتها في تحقيق ذاتها متجاوزة كل شيء يمكن أن يقف حاجزا أمامها.

تعرضت سندس الى عديد المضايقات من عائلتها و من عائلة زوجها لكنّها رسمت استراتيجيات واضحة لتحقيق ذاتها متجاوزة كل الأدوار النمطية للمجتمع والمتمثلة فيما يجب ان ينشا عن ارتباطها بزوجها من أدوار انتاجية ومجتمعية.

ترى سندس أنّ هذه الثوابت الاجتماعية ماهي إلاّ ثوابت وهميّة وضعها المجتمع ليعيق المرأة ويضعها في خانة الإنتاج. من خلال اضطلاعها بالوظيفة البيولوجية وإنتاج ما تتطلبه العائلة فقط، فهو مجتمع حرص طويلا على أن يجعل المرأة مكملة للرجل وفي تبعية مادية ومعنوية له فقلبت كل الموازين الاجتماعية الصارمة لتكون هي مركز ذاتها و عائلتها والدّليل على ذلك هو أنّها هي التي بحثت عن عمل لخطيبها ثم حتى عند انتقالها لتعمل كمديرة علاقات فكرت وخططت نيابة عن زوجها باعتبار أن الظروف في ذلك البلد أفضل بكثير من البلد الآخر، وتقول سندس مفتخرة "لا أعرف اليأس ولا الاستسلام" بل أصل إلى طموحي وإرضاء ذاتي بكل ما أملك من تفاؤل ورغبة في الوصول.

الخاتمة

لم تمثّل العوائق الاجتماعية حاجزا أمام سندس لتحقيق ذاتها وانتمائها وفرض كيانها كذات فاعلة داخل المجتمع .بل كانت إستراتيجيتها دقيقة وخياراتها ناجعة من أجل تحقيق هدفها من خلال "الهجرة".

وقد خاضت سندس تجربة الهجرة و لم تكن الهجرة في حدّ ذاتها هدفا بقدر ما كانت مسارا يفضي الى مرحلة جديدة مختلفة من حيث العلاقات والتوجهات والتمثلات، مرحلة تكيفت فيها مع محيطها الجديد أحيانا وصارعت فيها الحنين إلى وضعها القديم أحيانا أخرى، مرحلة لم تتخلّص فيها من القديم كلّيا ولم تنجح في التكيّف مع الواقع الجديد بسهولة. هذه المرحلة رغم غموضها إلاّ أنها اكتشفتها بكل ما أوتيت من فضول وحبّ للمغامرة.فقد ظلّ طموح سندس ممزّقا بين إرضائها لضوابط البنية الاجتماعية من ناحية وإرضائها لطموحها الشخصي ورغبتها في التألق والإبداع من ناحية أخرى. وقد تجاوزت سندس الأطر الاجتماعية تاركة

وراءها ضوابط مؤسسة الزواج وما يترتب عنها من التزامات وواجبات بل تركت وراءها حتى حلمها بالأمومة وما تقتضيه من مسؤوليات وأدوار اجتماعية يمكن أن تحدّ من سقف طموحها الذي قد يصبح غير قابل للتجسيد

ورغم ذلك تأقلمت سندس مع كل الظروف والمسؤوليات المهنية بل أبدت تميزها في تسلقها للسلم الاجتماعي متجاوزة كل العوائق الاجتماعية لتكون ذاتا فاعلة داخل المجتمع ولم تعد ذاتا محكومة بل استطاعت أن تكون ذاتا فاعلة تسعى لصنع واقعها الاجتماعي. فقد استطاعت أن تندمج وتتفاعل في علاقة اجتماعية ومهنية جديدة على الرغم من اختلاف الثقافة المجتمعية بل أعادت بناء روابط اجتماعية جديدة مع مجموعات وثقافات مختلفة واستطاعت التأقلم معها والاندماج فيها. ورغم الاختلافات والصعوبات إلا أن هدفها هو المحرّك لكلّ أفعالها.

لقد نجحت سندس في بناء واقعها الاجتماعي استنادا الى أفعالها وأدوارها الاجتماعية لا على نوعها البيولوجي (الجنس).

لكن التساؤل في نهاية حديثنا عن تجربة سندس يكون عن مدى قدرتها على كسر ملامح الصورة النمطية دون أن يتحول ذلك الى فشل في رسم صورتها الاصلية.

لعلّ نجاح سندس في رسم حدود عالمها الخاص لم يعد يسمح لها بالرجوع إلى عالمها الذي غادرته ورغم كونه عالما محافظا إلاّ أنّه كان يمثل الضامن لمرورها إلى تكوين أسرة وإنجاب أطفال والاستقرار مما يضمن على الأقل تحقيق توازنها النفسي وإشباع احتياجاتها.

إنّ نجاح الفاعل في تغيير الضوابط والأطر الاجتماعية لا يعنى بالضرورة نجاحه في تحقيق توازن نفسي واجتماعي يتأتيان من الاستقرار وربط علاقات اجتماعية في بيئة يحمل أفرادها نفس التمثلات الاجتماعية ويخضعون لنفس الضوابط ويحملون نفس المرجعيات الأخلاقية والفكرية.

المراجع

الناشي محمد، *مدخل إلى السوسيولوجيا البراغماتية*، ترجمة ميلود طواهري، سلسلة نديم للترجمة، الجزائر، ابن نديم للنشر والتوزيع، الطبعة 1، 2014.

بلعباس عبد الله، "ظاهرة الهجرة عند عبد المالك الصياد، من السياق التاريخي الى النموذج السوسيولوجي"، مجلة *انسانيات*، عدد 62، سنة 2013.

النجار باقر، *سوسيولوجيا المجتمع في الخليج العربي*، بيروت، الكنوز الأدبية، 1999.

Boltanski Luc, De la critique : *3 U H L V G H V R H I R R U I H G H O P D Q H S D W R Q*, Paris, Gallimard, 2009.

Bourdieu Pierre et Passeron Jean-Claude, */ H V K U W H V O H V W G D Q W et la culture* 3 D U V G W I Q X W

Goffman Erving, *The Presentation of the self in Everday life*, Anchor Book, New York, 1959.

الكفاءات التونسية بين الهجرة والعودة المشروطة[1]
"هجرتي... عودتي... قرارات محكومة بشروط السياسات التعليمية والتشغيلية بتونس ووضوحها."

نعيمة الفقيه[2]

المقدمة

منذ ثورة 14 جانفي لسنة 2011، شهدت هجرة الكفاءات بتونس تحولات نوعية، فبعد أن كانت أوروبا تستأثر لوحدها بـــ 84% من المهاجرين[3]، تحولت الوجهة إلى دول الخليج العربي والولايات المتحدة الأمريكية وكندا، ومن جملة 12 ألفا من الأساتذة الجامعيين والباحثين توجه قرابة 4000 أستاذا إلى دول الخليج أو أوروبا، كما أنّ 80% من الأساتذة الجامعيين ينوون الهجرة عند وجود الفرص الممكنة[4]. ورغم ما جاءت به الثورة من تحولات على جميع الأصعدة فإنّها لم تنجح في حلّ أزمة الكفاءات التي مازالت تعاني إلى حدود اليوم من محدوديّة الآفاق خاصّة في ظلّ غياب إستراتيجية واضحة من قبل الدولة للإحاطة بشريحة اجتماعية هامة تمثّل القوى المحركة لعمليّة التنمية وتحقيق الرقي الاجتماعي. نسبة

---

[1] أنجزت هذه الورقة تحت إشراف الأستاذة حميدة الطرابلسي باشا في إطار ورشة الكتابة التي نظمتها جمعية تونس الفتاة بالتعاون مع منظمة كونراد أديناور خلال شهري جويلية وسبتمبر سنة 2019.

[2] نعيمة الفقيه، دكتوره في علم السكان، لها عديد الأبحاث أغلبها تتركز حول ظاهرة الهجرة الخارجية، شاركت في عدد هام من الأبحاث والتظاهرات العلمية على مستوى وطني ودولي.

[3] عمار قردود، 94 ألف كفاءة غادرت تونس في ظرف 6 سنوات و15 ألف منذ سنة 2018، 29 أكتوبر 2018، الموقع (تمت مراجعته 15/09/2019) : http://www.kapitalis.com/anbaa-tounes/2018/10/29/94

هذه الإحصائيات المذكورة وقع اختلاف بشأنها مع وزير التعليم العالي، إلا أنها تبقى معطى تبين حجم هجرة الكفاءات نحو دول الخليج وتزايدها في فترة ما بعد الثورة. وبهدف التعمق في ظاهرة هجرة الكفاءات يمكن العودة لأعمال الباحث حسان بوبكري ومن بينها :

Hassen Boubakri، «Les migrations en Tunisie après la révolution»، *Confluences méditerranée*، 2013/4، N° 87، pp. 31-46.

[4] نفس المرجع.

هامة من خريجي التعليم العالي ضحّت لسنوات من أجل التميّز والحصول على مهنة تحفظ الكرامة وأجر يغطي جميع الاحتياجات، لكن كلّ الدلائل أثبتت أنّ هذه الكفاءات تحولت أحلامها إلى معاناة حقيقيّة، لا مناظرات، ولا عمل، ولا فرص، ولا قدرة شرائية، ولا امتيازات، ولا مكانة لكفاءات باتت تحسّ في ظلّ العراقيل بالضعف والعجز والخوف من الفشل، ووفق نيل ميلر Miller[5] عادة ما تتكرّر المحاولة في هذا المستوى لنيل ما يراد بلوغه، لكن دون جدوى، وهنا يكون التناقض بين الرغبة الملحة في البقاء في تونس وإثبات الذات باعتبارها كفاءة متميّزة وبين الحيلولة دون تحقيقه، سببا في الشّعور باليأس والإحباط، وتكون الهجرة هي الحلّ الأمثل في ظلّ غياب خيارات بديلة. ففي حين فشلت السّياسات والنّظم في تونس، خاصّة التّعليمية والتّشغيلية منها، في توفير فرص للكفاءات، نجد دول الخليج ذات الدّخل المرتفع ترحب بهم من أجل سدّ الشّغورات في أسواق عملهم. وبهدف درس ظاهرة هجرة الكفاءات في تونس وفهمها وتبيّن ما إذا كان الخوف من الفشل والإحساس باليأس يشكّلان محدّدات أساسيّة لأخذ قرار الهجرة، وللتوصّل إلى معرفة جدوى التّحرّك نحو خارج تونس يساعد على التّخلّص من الإحساس بهذا الفشل واليأس، ولنتبيّن أيضا إن كانت تجربة الهجرة محدّدا للعودة المشروطة أم لا، اعتمدنا المقاربة التفهّمية[6] وهي منهج مستقى من السياق التفهّمي الفيبري وهو يقوم على عدّة تقنيات في البحث الكيفي وبالأساس على المقابلة نصف الموجّهة، واخترنا نموذجا منيرة إحدى الكفاءات التي هاجرت إلى المملكة العربية السعودية، وأجرينا معها المقابلة عبر برمجيّة التواصل "سكايب" متعمقين في ذاكرتها المعيشية وسيرورة الأحداث والتحوّلات التي مرّت بها، ومن ثمّ كانت مهمتنا مزدوجة : استجماعية للمعطيات الذاكريّة وتفهّمية نقدية. وفي هذا المستوى تتنزّل عدّة أسئلة محوريّة سنعمل على الإجابة عنها ضمن هذه الورقة البحثية، ومن أبرزها : أيّ واقع تعيشه الكفاءات في تونس اليوم ؟ ماهي الدّوافع التي تقف وراء مغادرتهم لأرض الوطن ؟ أيّة مكتسبات

[5] د. نجاة أحمد الزليطني، «سيكولوجية العدوان والنظريات المفسرة له»، قسم علم النفس، المجلة الجامعة، العدد السادس عشر، المجلد الرابع، نوفمبر 2014، كلية الآداب، جامعة الزاوية، الزاوية، صص. 167-184، ص. 169.

[6] Jean-Claude Kaufmann، *L'entretien compréhensif*، Paris، Nathan، 1996، p.8.

يمكن أن تحقّقها في دولة المقصد وهل من صعوبات تعترضهم خاصّة من ناحية الاندماج ؟ وماهي الحلول الممكنة للحدّ من تزايد ظاهرة هجرة الكفاءات للاستفادة منها وجعلها في خدمة المسار التنموي في البلاد ؟

1. الخوف من الفشل والإحساس باليأس محدّدات رئيسية لاتخاذ قرار الهجرة

يعيش الفرد في بلده الأصل، ويكون له مسار دراسي متنوع يختمه بالحصول على شهادة علمية، يخال أنّه سيتحصّل بفضلها على عمل يحفظ كرامته ويمكّنه من إثبات وجوده، لكنّ الصّعوبات التي تعترضه على أرض الواقع ومعايشة بعض التّجارب غير الناجحة، تجعل الخوف من الفشل والشّعور باليأس، خاصّة أمام تكرار عدد من المحاولات الفاشلة، دوافع رئيسيّة تحتّم الهجرة على عدد هامّ من الكفاءات فتصبح بذلك الهجرة خيارا استراتيجيا، وهذا ما عاشته منيرة.

1.1. مسار دراسي متنوع وكفاءة بامتياز

منيرة متزوجة، تبلغ من العمر 43 سنة، عاشت في أسرة تتكون من 13 فردا تتسم بالانسجام والتعاون، جميع الإخوة متعلّمين ومتفوقين في دراستهم، وهو ما جعلها تحب العلم وتعمل على النجاح والتميز. على إثر حصولها على شهادة الباكالوريا انتقلت من القصرين إلى صفاقس لمزاولة تعليمها العالي، وبعد أربع سنوات تحولت إلى العاصمة لتدرس مرحلة الماجستير. وأقرت منيرة أنّ التعليم وتطوير مهاراتها كان من أولوياتها في الحياة، وهو ما جعلها تواصل مرحلة الدكتوراه وتتحصل على شهادتها. وأصبحت ترى في نفسها القدرة على النجاح معتبرة أنّ مستواها العلمي هو الفيصل في تحديد الفوارق في المجتمع بين الأفراد وهو السبيل للحصول على مهنة تليق بها. اقتحمت منيرة بكفاءتها المجال البحثي وشاركت في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية الوطنية والدولية، وكان لها إسهامات جادة في علم الاجتماع من خلال إجراء عديد الدّراسات، إذ نشرت أعمالا متنوّعة حول الهجرة الدّاخلية في علاقتها بالتنمية بمنطقة الوسط الغربي، واقتحمت مجال الدّراسات النّسويّة من خلال اهتمامها بالنّوع الاجتماعي في علاقته بالعنف، وبالحراك السكاني، وبالمشاركة في الحياة السياسيّة، ووصلت إلى حدّ تبيّن إشكاليّة الوصم لدى الفتاة المهاجرة من الريف إلى المدينة، وخاضت

منيرة الكثير من التجارب البحثية مع عدد من مراكز البحث في تونس من قبيل مركز الدراسات والبحوث والتوثيق حول المرأة «الكريديف»، مركز الدّراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية «CERES» وغيرها من المراكز البحثيّة.

2.1. "الخوف من الفشل جراء تجارب عايشتها"

تذكر منيرة أنها عايشت عدة تجارب جعلت الخوف من الفشل من أكبر الهواجس التي تشغلها. وتؤكد في هذا الخصوص أنّ رحلة الخوف بدأت مع قصة أخيها الذي يصغرها سنّا، إذ أنهى دراسته الجامعية في اختصاص الكيمياء في تونس ثم غادر نحو فرنسا أين تحصّل على شهادة الدكتوراه، وبعدها عاد إلى بلاده وكله أمل أن ينجح في مناظرة انتداب الأساتذة الجامعيين الباحثين لكن آماله ذهبت سدى ممّا دفعه إثر زواجه إلى الهجرة إلى كندا حيث تمكن من الحصول على عمل. لكنّ تعلّق أخيها بأسرته ووطنه جعله يعود من أجل بعث مشروع يمكّنه من النجاح والاستقرار، ومن جديد خاب ظنه في محيط لم يقدم له سوى ضمانات الخروج على إثر تكبيله بإجراءات إدارية معقدة أغلقت أمامه السبل لبعث مشروع والانتصاب لحسابه الخاص. وأكدت لنا منيرة أنه «*من سابع المستحيل أن يعود إلى تونس، لقد استقر هناك واشترى مسكنا وهو مقيم هناك منذ ثماني سنوات*»، وبينت أنّ نية البقاء مردها انغلاق الآفاق أمام الكفاءات في تونس. وأضافت منيرة أنه لا يوجد ما يشجع على البقاء في بلادها خاصة في ظلّ أوضاع راهنة تتسم بتدهور المقدرة الشرائية وتدني الأجور، وهي ترى أنّه لا مجال لمقارنة مستوى التأجير بين تونس ودول الخليج أو الدّول الأوروبية، وذكرت مثلا أنّ الأجر في السعودية أين تشتغل حاليا أستاذة جامعية يعادل الأجر في تونس أربع مرّات. وتساءلت هنا: «*ما مصير الكفاءات لو بقيت في تونس؟ ماذا بإمكانها فعله في زمن أضحت فيه المادة أهم من الرصيد البشري وفي وقت لا يغطي فيه الدخل الشهري أبسط الاحتياجات؟، لن تصل الكفاءات لتحقيق شيء، في تونس لا بد أن يكون لديك أجر لا يقل عن 3000 دينار حتى تحقّق ما ترغب به*»، وأكدت هنا أنّ إخوتها، خرّيجي التعليم العالي في اختصاصات مختلفة، يشغلون خططا متنوعة ومرموقة (فمنهم المهندس، ومنهم الأستاذ الجامعي والمدير العام في شركة إسمنت ومنهم المهندس في شركة إعلامية) ويتقاضون أجورا مهمة لكنها لا تمكنهم من بلوغ ما يطمحون إليه في ظل ظرفية معقدة جعلت من الصعب العيش

في تونس. وتوجهت لنا بحديثها : «*سواء كان لديك أجر مرتفع أو متردّ، لم يعد العيش ممكنا في تونس، المقدرة الشرائية للمواطن تدهورت، أجرك لن يمكّنك من العيش الكريم، والخارج كما يراه إخوتي كغيرهم من الكفاءات يبقى الحل الأمثل، هناك الأجور أفضل بكثير، وفي كل الجوانب الوضع أفضل*».

ونماذج الفشل التي عايشتها منيرة جعلتها لا تحس بالارتياح على الجانب النفسي، فكانت تتابع مجريات حياة إخوتها وذويها من الكفاءات، تحلل وتناقش وضعيتها، تسعى جاهدة للنجاح والرقي، للظفر بمكانة في مجتمع مازال لم يعدها بشيء ولم ينر لها الطريق بعد. ونتبيّن هنا أنّ ثقافة الهجرة ترسّخت في ذهن منيرة التي غدت تعيش على وقع رحيل مبرمج في صورة فقدان الأمل على غرار الشباب من الكفاءات الّذين عجزت الدولة عن الاحتفاظ بهم وإيلائهم المكانة التي تليق بهم.

3.1. يأس... والهجرة هي الحل

كانت منيرة تنتمي إلى أسرة ميسورة الحال، أغلب أفرادها يشتغلون، قالت : "*نحن تلك العائلة ذات العلاقة الطيبة بين أفرادها، تتسم بالتعاون لا تعاني أية مشاكل*"، وقد تعودت في هذا الوسط على المثابرة والاجتهاد في سبيل بلوغ ما تريده، وهذا ما جعلها طوال مسارها الدراسي تعتمد على نفسها فكانت تعمل لأجل توفير مستحقات الدراسة وبقية احتياجاتها. وبمجرد حصولها على شهادة الدكتوراه كان لديها أمل في تونس على أساس وجود مناظرات وانتدابات وفرص للحصول على عمل يحفظ كرامتها، لكن ظلمة الواقع ألقت بظلالها على أحلامها، طيلة أربع سنوات لم يتم فتح أية مناظرة من قبل وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. ومع ذلك استمرت منيرة في رحلة البحث عن فرصة تشدها إلى الأرض نشأت بها، فعملت أستاذة جامعية بصفة عرضية لمدة ثلاث سنوات، ومن ثم بصفة تعاقدية لمدة سبع سنوات، كما كانت تعمل مع عدد من مراكز البحث بشكل مؤقت وبدخل غير قار. ورغم أنّ ملف منيرة متواجد في الوكالة التونسية للتعاون الفني منذ سنة 2012، إلاّ أنها لم تحيّنه إلاّ سنة 2018 عندما استكملت حقها في التعاقد مع الجامعة التونسية في مرحلة أولى ومع هيئة الحقيقة والكرامة في مرحلة ثانية.

إنّ انسداد الآفاق أمام منيرة جعلها تحس بالضياع والحيرة والإحباط، لم تكن لديها فكرة الهجرة مطلقا خاصة في ظل ما يبلغها من أخبار عن حقيقة المجتمع

السعودي بصفة خاصة وعن المجتمع الخليجي بصفة عامة. في الحقيقة لم تكن في داخلها ترغب في مغادرة تونس، لكن بحكم ما عاشته من ظروف صعبة، وحسب حديثها كان من باب الصدفة أن تكون وجهتها السعودية، البلد الذي لم تختره لكن في حقيقة الأمر اختارته ظروفها ودفعها تجاهه بأسها فقد أكدت قائلة : "*لم أخترها هي قدمت إليّ، لقد كان هدفي الخروج من الوضع الذي كنت فيه، الهروب من تونس، من شبح البطالة واليأس، من فشل عايشته وعشته، يأسي جعل السفر هدفي الأول دون منازع*".

وحالة اليأس التي كانت تعيشها منيرة تبيناها في أسئلتها، في ملامح وجهها، في صمتها وأثناء كلامها، وكل المؤشرات دلت على أنها بكفاءتها فشلت في افتكاك مكانتها بتونس وهو ما جعلها تحسّ بالنقمة على المستوى العلمي الذي نجحت في الوصول إليه، النقمة على الشهادة، على معنى الكفاءة بصفة عامة ومن بين العبارات التي توجهت بها حتى تعبر عما تعيشه من معاناة دفينة إلى حدود اليوم "*لا ، لا ، الكفاءات في تونس ليس لها أي معنى، تتحصل على شهادة الماجستير أو شهادة الدكتوراه، الشهادة ليس لديها معنى في تونس، تملك نقودا ووساطة ومعارف وعلاقات يمكنك الوصول لتحقيق أهدافك وإلاّ فلا جدوى أن تقول إنك متحصّل على شهادة، فلا قيمة لها فعلا*". ما شهدته منيرة من عراقيل دفعت بها إلى اختيار الهجرة التي تحققت مشروعا ذاتيا سنة 2018 بعد نجاحها في المقابلة الشّفاهية التي أجرتها في الوكالة التونسية للتعاون الفني مع عدد من الجامعيين السعوديين وتم قبولها لتدرّس في الجامعة. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل مازالت آثار اليأس الذي عاشته وفقدان الأمل قائمة الذات إلى اليوم إذ أنها تتوجه بالنصيحة للكفاءات بضرورة عدم البقاء وتشجعهم على الهجرة لأنه في نظرها لا أمل في بلادها ومن الأجدر البحث عن الراحة والمصلحة والمنفعة، كما أفادتنا أنها بصدد البحث عن فرص في الجامعة السعودية لأصدقائها من الكفاءات في تونس.

وتحوصل منيرة تجربتها بالتأكيد على أنّ الهجرة هي الحل الوحيد للخروج من الوضع المتردّي الذي كانت تعيشه وترى أنّ الهجرة تحقق كل شيء، هي وسيلة لتحقيق أحلامها، خاصة على الصعيد المادي لأنّ أهم مشكلة في تونس هي المادة التي تبقى مفتاح الاستقرار، وتقرّ بأنّ كفاءات اليوم بقدر ما تتسم بالثراء

المعرفي فإنها في المقابل تعيش الفقر المادي والنفسي والاجتماعي، وهذا التناقض من شأنه خلق خيار واحد لا بديل له هو التوجه نحو الخارج وعبرت هنا عن موقفها *"كانت أحلامي فوق الثّريا فبددها الواقع لتكون تحت الثرى، لا مكان لي هنا، طرقت كل الأبواب واستنفذت جميع المحاولات، بت أرى تونس صحراء قاحلة ورحلتي فيها طالت دون الظفر بنبع ماء يرويني، هذا التعطش للعمل، للمكانة، لإثبات ذات ضائعة لم يقدني سوى للشعور بالإحباط وفقدان ذرّات الأمل"*، وهنا صرخت وكأنها أفاقت من كابوس مرعب باختصار يأس يخلفه يأس والهجرة نحو الخليج هي الحل. وتوجهت بذلك منيرة نحو السعودية في أوت سنة 2018 لتبدأ تجربة جديدة في بلاد المهجر. وهنا نتساءل : هل ستمكن الهجرة منيرة من التخلص من الخوف من الفشل واليأس الذي كانت تعيشه أم أنّ الهجرة ستكون مجرد باب لفشل جديد ؟

2. الشّعور بالخوف من الفشل في المهجر

إنّ قوّة شخصيّة منيرة والمكتسبات المتنوّعة الّتي ظفرت بها بمجرّد تواجدها في السّعوديّة، لم تمنعها من الشعور بالخوف من الفشل من جديد جرّاء تعرّضها لعدد من الصّعوبات والعراقيل الّتي جعلت شبح الخيبة يخيّم على حياتها خاصة في ظلّ عدم وقوف زوجها إلى جانبها خلال هذه الفترة الانتقاليّة التي تعيشها.

1.2. قويّة وطموحة بدرجة أولى

عند وصول منيرة إلى السعودية تم استقبالها بالمطار من طرف شخص مفوّض لمرافقتها إلى النزل الذي أقامت فيه لمدة عشرة أيام، أثناءها كانت تتنقل معه لتسوية وثائقها الطبية والإدارية. ووجدت نفسها في عالم جديد متعدد الأبعاد، ورغم ما يتّسم به من خصوصيّات متناقضة تتراوح بين التحضّر والثراء المادي من جهة، وبين عادات رجعيّة مقيّدة لحرية المرأة من جهة أخرى، وقد مكّنها طموحها من الإصرار على تنفيذ خياراتها وتحمل مسؤولياتها بمفردها، وبدأت الخطوة الأولى بارتداء النقاب رغم عدم قناعتها به، ومن ثم اتصلت بعدد من الأصدقاء من تونس المقيمين هناك لمساعدتها على إيجاد مسكن لاستئجاره بالقرب من الجامعة التي تدرّس فيها، وحالما تحصلت على مسكن جهزته بجميع المتطلبات الضرورية، كما أنها اتصلت بالجامعة لمعرفة أوقات عملها والصفوف

التي ستدرسها. وهكذا كانت لمنيرة، تلك الإنسانة ذات الإرادة القوية، مهارات وقدرات أهمها استعدادها النفسي وتسخير وقتها وجهدها لتنجح في رحلة نسجها القدر قبل أن ينسجها الواقع. وأقرّت منيرة أنّها سرعان ما بدأت العمل وارتبطت بالإدارة، وكانت تمتلك مؤهّلات جعلتها جديرة بالخطة التي تشغلها في الجامعة والتي طالما انتظرتها في تونس ولم تتحقق. وكان العمل الجدي سبيلا لتمكّنها من التعامل مع الطلبة والتأقلم مع الظروف والمتغيرات. وفي ظل غياب الإطار البشري اللّازم لعمل الجامعة، تتولى منيرة مهاما عديدة بعيدة كلّ البعد عن التدريس فحسب مثلما هو الحال في الجامعة التونسية، فهي تلعب دور الإداري والمدرس والمربي في ذات الوقت، وفي فترة قصيرة بدأت تحقق نجاحا جعلها تحظى باهتمام الإطار المشرف على الجامعة، فتم تكليفها بمسؤوليات جديدة مثل تصور خطط للتكوين ووحدات جديدة للتدريس، وكان لها من جهة أخرى أثر كبير في الطالبات اللاتي تشجعهن على العمل والمثابرة والمساهمة في أنشطة يطوّرن بها أنفسهنّ وجامعتهنّ مثل إنجاز حملات نظافة وندوات علمية، وهو ما مكنهنّ من التخلص من روتين لاحقهنّ لسنوات طوال.

وبعد ستة أشهر عادت منيرة إلى تونس وأتمّت مراسم الخطوبة والزّواج مع صديق كانت تعرفه منذ ثلاث سنوات تقريبا، وهو خرّيج تعليم عال اختصاص حقوق، كان يعمل في هيئة الإعلام السّمعي البصري «الهايكا»، لكنّه فضّل التّضحية والانقطاع عن العمل لأجل مرافقتها إلى الخليج. وعند وصولها إلى السعوديّة، سوّت منيرة وضعية زوجها الذي التحق بها بعد شهرين، وكان الوئام التام يسود أجواء حياتهما معا. وبعد أن كانت بمفردها، فرحت بقدوم زوجها الذي كانت تظنّ أنه سيخفّف عنها أعباء الغربة ويتقاسم معها المسؤوليّة، لكنّه خلافا لتوقّعاتها، رفض قبول ممارسة أيّ مهنة لا تليق بمستواه العلمي وهو ما جعله يبقى طوال اليوم في المنزل دون أي نشاط يذكر، فكانت تتحمّل عديد المسؤوليات في الآن ذاته بدءا بالعمل وصولا إلى متطلبات العيش من مأكل ومشرب وفاتورات وتسوية وثائق ومتطلبات وتجهيزات، . . . زد على هذا مساندة أهلها وأهل زوجها عبر إرسال مبلغ من المال لكل منهما كل شهر. مختلف المعطيات تدل على أنه كان لمنيرة في بداية قدومها القدر الكافي من القدرات حتى تتمكن من تحمل أعباء تصعب على أي شخص آخر خاصة في مجتمع لا يشبه مجتمعها الأصلي.

2.2. "*خيبة أمل من جديد*"

وتتالت الأيام ومنيرة على الحال نفسه، يملؤها النشاط وحب الحياة، شغوفة بالنجاح في مسارها المهني، تتحمل كل المسؤولية دون كلل أو ملل، تسهر الليالي تعدّ دروسها، تصلح امتحانات طلبتها، تجتهد لإرضاء زوجها. ورغم تجربة الهجرة لم تنجح منيرة في قلب موازين النوع الاجتماعي، وبقيت تلك العلاقة العمودية المتسمة بالتبعية بينها وبين زوجها، فكانت في كل خطوة تخطوها تبحث عن إرضائه قبل إرضاء نفسها، وتعمل على إسعاده رغم تضحياتها التي تثقل ذاتها فبدأت تحس بضياعها شيئا فشيئا. بعد أن غادرت منيرة تونس ولجأت إلى بلد رسمت فيه كل ملامح السعادة والراحة، وجدت نفسها أمام مفترق جديد، ظنت في البداية أنها استطاعت أن تجذب زوجها نحو عالمها ليساندها حتى تواصل مسيرتها وتثبت للعالم أنها المرأة التي تحدت معنى المجالات والأزمنة لتكون قائدة نفسها ورمزا لكل الشعوب وأملا لكفاءات أخرى تنتظر فرصة للهجرة، لكنها بسرعة أفاقت من حلم، لا بل من جنون كانت تعيشه. وبدأت العاصفة مع بداية شعور زوجها بالملل من هذا العالم الخليجي الذي رفض كل خصوصياته، لم يرغب أن يبقى سجين أفكار رجعية تفرض على المرأة ارتداء النقاب وعدم الخروج إلى أماكن عامة بكل أريحية مع زوجها، لم يرض أن يعمل في مجال لا يرتقي لمستواه المهني، ونقل هذا الصراع الدفين في ذاته إلى منيرة التي بدأت تحس بالفشل يلاحقها من جديد، وظلت تتخبط في وجع يحيط بها من كل النواحي، لماذا يقابلها زوجها بهذا العناد ؟ لماذا لا يضحي من أجلها ؟ ما ذنبها وما مصير هذا الزواج ؟ ما مصير رحلة مازالت سفينتها لم تصل إلى البر الذي تقصده ؟ وحلت الظلمة محل كل بصيص نور، وبدأت تخاف من العودة لأنها ستجد زوجها عبوسا يلعن اليوم الذي قدم فيه إلى هنا، زوج لم يعد يطيق الحديث معها، بل الجملة الوحيدة التي يرددها كل يوم "*أنا لا أحب هذا البلد المليء بالعقد والذي يحد من حرّيتي، إنه مكان يخنقني، أريد أن أذهب إلى إحدى الدول الأوروبية وبالتحديد ألمانيا*"... ولم تعد منيرة تعرف ماذا تقول أو ماذا تفعل، كل يوم تظنّ أنّ زوجها سينسى الأمر، لكن الأمر يتجدد في كل لحظة. وقرّرت أن تمنحه فرصة ليعود إلى تونس ويفكر ويقارن بين وضعه هنا وهناك محاولة إقناع نفسها أنه عندما يعود إلى بلده ويجد الآفاق مغلقة سيعود بكل إرادته. وبالفعل عاد إلى تونس وكأنه

طائر خرج من سجن طالت مدته، سعادته لا تضاهيها سعادة أخرى، وبقيت منيرة وحيدة تحاول أن تستجمع قواها من جديد رغم الحزن الذي يسكن قلبها، لقد ظنت أنها كوّنت أسرة وتحصلت على عمل جيد وزوجها سيكون الدرع الحصين لها في بلد الغربة، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، عادت إلى وحدتها من جديد وكأنها عزباء لم تتزوج بعد، ورغم هدوئها مقارنة بما كانت عليه عند وجود زوجها معها، أصبح الخوف يلازمها، خوف من عدم عودة زوجها مرة أخرى، وهنا طرحت عديد الأسئلة التي تخالجها " *هل سيتخلّى عنّي؟*"، "*هل سيختار السفر إلى ألمانيا دون الاكتراث لأمري ؟*"، "*كيف ستكون حياتي ؟*"، أسئلة تحوم حولها لكن الزمن وحده كفيل بالإجابة عنها.

وأثناء العطلة الصيفية عادت منيرة إلى تونس لمدة شهر قضته مع زوجها في مسكن أهله، لكنها كانت فترة أصعب مما تتصور، ظلت رحلة العذاب تلاحقها، ووجدت زوجها في حالة نفسية سيئة، علاقته بها يسودها البرود والجفاف، يتملكه الغضب بمجرد الحديث عن السعودية أو استحضار أيامه هناك، ويردّد من حين إلى آخر رغبته في الهجرة إلى ألمانيا حيث العمل والثراء والحرية والتحضر الحقيقي. وعند انتهاء العطلة عادت منيرة بمفردها إلى السعودية وبقي زوجها مع أهله رافضا في البداية الالتحاق بها، لكن بعد محاورات طويلة عبر شبكة التواصل الاجتماعي تمكنت منيرة من إقناعه بالسفر من جديد إلى الخليج واعدة إياه بمحاولة العثور على عمل لائق يرضيه، كما أكدت له أنه بمجرد حصوله على فرصة للذهاب إلى ألمانيا بإمكانه ذلك وهي مستعدة لمرافقته ومساندته لبناء حياة مشتركة ناجحة.

وفي داخلها لم تكن منيرة تحس بالرضاء أو الارتياح، في كل لحظة تطرح نفس الأسئلة على نفسها ولا تلقى الإجابة، و بعد قوة وصلابة بدأ شعور اليأس والخوف والإحساس بالفشل يلاحقها من جديد، لأنها لم تعد تدري ما مصير حياتها الزوجية خاصة وأنها أصبحت تربط فشلها وسعادتها بزوجها دون أن تفكر في ما عاشته من إشكاليات في تونس وما قدمته من تضحيات حتى تصل إلى السعودية وتظفر بعمل طالما تمنته سابقا ولم تجده.

إنّ منيرة تعيش كالطائر الجريح الذي لم يعد يحسّ بالراحة في أيّ زمان ومكان، عديد السهام توجه إليها من كلّ صوب لتغمس في قلبها وتحيي شعور

الخوف وعدم الطمأنينة في داخلها، الهاجس المادي وتحسين أوضاعها في ظلّ انغلاق الآفاق في تونس من جهة وعلاقتها بزوجها التي بدأت تخضع لتحديات المكان وخصوصياته أكثر من خضوعها لمشاعر تربطهما من جهة أخرى... أصبح الحاضر يقلقها والمستقبل يسيطر عليه شبح الفشل رغم أنّها في المقابل تتحمل جميع الأعباء المادية منها والنفسية وتحقق التقدم والرقي على الصعيدين المادي والمهني. وما يثير حيرتها هو الآتي: هل أنّ بلوغ الثراء المادي والتألق المهني سيساعدها على الاستقرار في السعودية، أم أنّ الخوف الذي يلاحقها سيجعلها تواجه هذه التجربة وتفكر في مشروع جديد يحدد لها توجهات أخرى ؟

3. تجربة الهجرة بين قرار الاستقرار والعودة المشروطة

من الأكيد أنّ الامتيازات المادية والمهنيّة بمنطقة الخليج تجعل منيرة تستبعد فكرة العودة، إلّا في حالة وجود فرص جديدة في بلد المنشإ أو في إحدى الدول الأوروبيّة، خاصّة أمام معاناتها جرّاء صعوبة الاندماج في مجتمع يختلف كلّيا عن تونس ورفض زوجها البقاء في فضاء يعتبره سجنا قاتلا للحريات.

1.3. ظروف مادية ومهنية تشجع على الاستقرار

تفيد منيرة أنّ وضعها المادي تحسّن للغاية، وزاد أضعاف الأضعاف مقارنة بما كان عليه في تونس، وعلى حد قولها أفضل من أجر وزير في بلادها، وساعدها هذا الدخل الهائل من خلال التحويلات المالية المنتظمة على دعم علاقاتها بأهلها وأهل زوجها. وأكدت أنّ الجانب العلائقي سواء على مستوى الإطار العامل في الجامعة أو مع طالباتها جيد لا تشوبه أية مشاكل تذكر، فقد كانت لها القدرة الكافية على إدارة علاقاتها المهنية وجعلها في كنف من التقدير، كما أنها كانت تدرّس طالبات مستواهن الصف الخامس وهو ما يعادل الأستاذية في تونس، أي أنّ تعاملها كان مع شابات عرفت كيف تقترب منهن وتعاملهن بشكل جعل الاحترام يميز العلاقة بينهنّ، وتعبر عن ذلك بمصطلح سعودي شائع "العلاقات كويّسة"[7] مع الجميع.

[7] العلاقات كويّسة : مصطلح شائع بالمجتمع السعودي ويقصد به العلاقات جيدة.

وعبرت منيرة عن ارتياحها من ناحية الجانبين المادّي والمهنيّ، وأكدت أنّ هذا يشجعها على الاستقرار، إلاّ أنه في المقابل توجد ظروف أخرى تحوّل هذا الاستقرار في كل مرّة إلى خوف من القادم، من قبيل موقف زوجها من تواجده في الخليج، وطبيعة هذا المجتمع من ناحية أخرى، وصرّحت بأنّ ما يزعجها في بلد الاستقبال هذا عاداتهم وتقاليدهم المختلفة تمام الاختلاف عن عادات تونس وتقاليدها، فعلى عكس بلادها حيث الحرية والتحضر، وحسب تصريحها " *في السعودية كل خطوة تحتسب عليك، لابدّ من ارتداء النقاب ومعرفة كيفية التصرف وفق الآداب المعمول بها، ضرورة معرفة أين تذهب ومتى تخرج*" هنا على سبيل المثال وتضيف : "*لا تستطيع العازبة مقابلة الرجال. . . ولا تستطيع المتزوجة التجول والخروج مع زوجها كما يحلو لهما. . . الضوابط تحيط بتصرفاتنا من كل جانب*". هذه الفوارق الشاسعة بين البلدين تثير قلقها، فبعد أن كانت تتمتع بحرية كاملة في تونس، أصبحت تخضع لقيود تفقدها الشعور بالراحة.

وشعور منيرة بالانتماء على الصعيد المهني لم يمنعها اجتماعيا من الإحساس بأنّها وحيدة لمحدودية علاقاتها وعدم معرفتها للكثير من الناس هناك، فإلى اليوم لا تشعر بالاندماج في مجتمع جديد مازالت تخاف من بناء العلاقات مع أصيليه، وهي تؤكد بأنها تتحاشى ربط أية علاقات مع الجيران أو عند خروجها للشارع أو عند توجهها للمحلات والأسواق بهدف التسوق، وأفادتنا بأنها في الحقيقة تتوخى الحذر دائما، وفي تصوّرها أقل علاقات يعني أقل مشاكل، فهي تفضل البقاء منزوية لوحدها حتى تتجنب مشاكل هي في غنى عنها وتفيد بأنه حسب المثل التونسي المتعارف عليه " باب مسكّر ولا كرية مشومة[8]".

2.3. نعم للعودة المشروطة

رغم ما تعيشه منيرة من صعوبات في بلد المهجر جراء الخوف من المجهول، إلا أنّ الأمان المهني والمادّي يجعلها تستبعد فكرة العودة، وتؤكد أنّها لن تنفّذ قرار العودة إلا في حالة عدم قبول تجديد عقد العمل من قبل الجامعة، فحسب تجربتها لا يوجد ما يشجعها على العودة إلى تونس وما من خيار سوى قبول الرهان والبقاء

[8] باب مسكر ولا كرية مشومة : مثل تونسي شائع، ويقصد به الابتعاد عن كل ما يضر الفرد من أفعال وتصرفات وسلوكيات ومواقف وغيرها، أي إغلاق الأبواب عن كل ما يضر أفضل من الانفتاح الذي يجلب المشاكل.

حاليا في السعودية. وتبيّن منيرة أنّ عودتها مستقبلا مشروطة بوجود فرص أفضل في تونس، لانها ليست مستعدة لعيش تجربة العذاب من جديد، عذاب يعانيه عددهام من الكفاءات اليوم التي بدأت تقبل على مغادرة البلاد. وتجزم منيرة أنها لن تبقى لحظة واحدة في السعودية لو وجدت أبوابا أوسع للنجاح والربح المادي الذي يبقى من أبرز مقومات الحياة والسعادة، وتتمنى أن تجد فرصة حقيقيّة خاصة في إحدى الدول الأوروبية لتحلّ جميع مشاكلها وتتخلص من هواجس مازالت تلاحقها بين الحين والآخر. وتستحضر تجربة إخوتها من جديد وتربط رغبتهم في الهجرة بالبحث عن وضع مادي أفضل، وهذا ما جعل الفرص وفق تصوراتها هي تلك التي تضمن دخلا أفضل، دخلا لا يؤمّن فقط لقمة العيش، بل دخلا يمكن من الاستجابة لجميع الاحتياجات الضرورية وإقامة مشاريع مربحة في تونس.

نتبيّن في هذا السياق أنّ هجرة الكفاءات في السّنوات الأخيرة لم تعد تتعلّق بمحدودية الآفاق في تونس فحسب، بل لها صلة وثيقة بدوافع ماديّة كانت أقوى من أية دوافع أخرى، بل وأصبحت هي المحدّد الرئيسي لوجهة كل من يرغب في الهجرة اليوم، خاصّة وأنّ منزلة الفرد باتت تتحدّد انطلاقا من وضعه ومستواه المادّي دون إيلاء أهميّة لمستواه العلمي أو الشهادة الّتي تحصّل عليها، وهذا ما جعل منيرة تفكّر في الانتقال إلى المكان الّذي سيوفّر لها الحظوظ الأوفر من الناحية المادّية. وفي هذا المستوى تتبادر إلى أذهاننا عدّة تساؤلات حول الحلول الممكنة لمواجهة هجرة الكفاءات في تونس، وفي حالة استمرّت هذه الكفاءات في التّوجه نحو الخارج هل من سبل تساعد على تيسير عمليّة اندماجها في بلد المقصد.

الخاتمة

نتبيّن من خلال تجربة منيرة أنّ هجرة الكفاءات ترتبط بعوامل من أهمّها محدوديّة الآفاق لخرّيجي التعليم العالي وضعف الأجور أمام غلاء المعيشة وتزايد الأسعار في السنوات الأخيرة، وأخرى جاذبة ميّزت المجتمع الخليجي وأبرزها العوامل المادية التي شجّعت نسبة هامة من الشباب على مغادرة أرض الوطن والتّوجه نحو مجتمع تعترضهم فيه الكثير من الصّعوبات التي تجعل الشعور بالاستقرار منعدما ولكنهم رغم ذلك يرون أنّ قرار العودة أمر مرفوض في ظل

غياب حلول بديلة تقوم على فرص أفضل في مجتمع الأصل أو غيره من المجتمعات الأخرى خاصة الغربية منها. والتمعن في حقيقة هجرة الكفاءات في ظلّ ثنائية تتراوح بين الاستقرار والرغبة الدفينة في العودة، وبين الشعور بالانتماء الواهم والغربة، يبيّن أنّ الهجرة وليدة لحظة من الإحباط وخوف من الفشل يعيشها كلّ من حالت الظروف دون حصوله على فرصة في بلده، الشيء الذي جعله ينظر إلى الهجرة سبيلا للنجاة من يأس وفقر نفسي أكثر من كونه ماديا ليحتضن فقرا وجوديا في بلاد لا تعده سوى بدخل جيد في حين تسرق منه كل لحظة اندماج حقيقيّ في مجتمع لا تربطه به أية روابط ثقافية أو اجتماعية. ومن بين المقترحات التي توصّلت إليها السيدة منيرة وتوجّهت بها إلى الكفاءات التي مازالت ترغب في الهجرة إلى السعودية هي أهمية وجود الرغبة الحقيقيّة في الهجرة إلى دول الخليج وقبول الوضع في هذه البلدان كما هو، وتوضّح أنّ كلّ من يرغب في الهجرة عليه التأكد من أنّه بإمكانه القدرة على التأقلم مع الوضع والتّضحية حتّى يستطيع العيش، وترى أنّ الحياة في الخليج مريحة وليست سيئة وأحسن من تونس خاصة ماديا لكن من الضّروري العمل على خلق إستراتيجية تيسّر عملية الاندماج وهذا وفق تصوّرها يتطلّب قدرا كبيرا من الشّجاعة والرغبة واكتساب شخصية قوية تتمكّن في كلّ الأحوال من التأقلم مع الحياة بالشّكل الذي هي عليه.

واستمرارية هجرة الكفاءات من تونس يمثّل ضياعا حتميا للطاقات البشرية القادرة على خلق بنى اقتصادية جديدة تضمن استمرارية قوة الدولة على جميع الأصعدة، وبناء عليه ووفق تجربة منيرة نتوصّل إلى طرح عدد من المقترحات التي تساعد على مواجهة نزيف هجرة الكفاءات، من بينها ضرورة عمل الدولة على تحديث خططها وتجديد تصوراتها المتعلقة بالتعليم العالي والبحث العلمي بشكل يساعد على إحداث اختصاصات تتماشى مع متطلّبات سوق الشّغل وتجعل الآفاق مفتوحة أمام خريجي التعليم العالي في تونس، هذا زيادة على أهمية السعي إلى وضع استراتيجيات تساعد على استقطاب الكفاءات التي تتواجد في الخارج لجعلها في خدمة الخطط التنموية عبر تمكينها من تحفيزات هامة لبعث المشاريع ووضع مخابر بحث على ذمتها.

خلاصة القول، على الدولة خلق فرص جادة في تونس لاستقطاب كفاءاتها وربطها بدولتها واقتصادياتها، كما أنه من الضّروري تيسير سبل العودة عوض

التشجيع على الهجرة التي بدأت تستنزف مواردنا البشرية مما قد يشلّ قطاعات حيوية بشكل ينبئ بخطورة الوضع في تونس على المدى القريب.

المراجع

– قردود عمار، *94 ألف كفاءة غادرت تونس في ظرف 6 سنوات و15 ألف منذ سنة 2018*، 29 أكتوبر 2018، الموقع (تمت مراجعته 15/09/2019) :
http:// www.kapitalis.com/anbaa-tounes/2018/10/29/94

– الزليطني، نجاة أحمد، «*سيكولوجية العدوان والنظريات المفسرة له*»، قسم علم النفس، المجلة الجامعة، العدد السادس عشر، المجلد الرابع، نوفمبر 2014، كلية الآداب، جامعة الزاوية، الزاوية، صص. 167–184.

%RXEDNU + DWDQ d / HVP IJUDWRQ¥Q7 XQ¥LHDS¢aVDU YRKWRQ, *&RQIOXHQFHV0 GLWUDQ H*, vol. 87, no. 4, 2013, pp. 31-46.

- Kaufmann, Jean-Claude, */øHQWHWHQFRP SUKHQVI*, Paris, Nathan, 1996.

هجرة الكفاءات شبه الطبية من المستشفيات العمومية[1]

رياض بشير[2]

مقدمة

تعتبر هجرة الكفاءات من أبرز الإشكاليات التي تعيشها تونس اليوم حيث تفاقمت هذه الظاهرة في بعض القطاعات[3] خاصة إثر ثورة 2011 لعدة أسباب وأصبحت في صدارة اهتمام المجتمع التونسي بما فيه من نخب سياسية داخل منظومة الحكم وخارجه ومجتمع مدني وخبراء وملاحظين. ووصل الانشغال بهذا الملف الحارق إلى مجلس الأمن القومي الذي يشرف عليه أعلى هرم السلطة من خلال اجتماع خاص انتظم يوم 04 أكتوبر[4]2018، حيث تم الاهتمام بهذا المشغل وأخذ هذا الملف حيزا واسعًا من نقاشاته بعد ان أصبح يشكّل نزيفا حادا للخبرات التونسية في اختصاصات متميّزة ودقيقة.

فهجرة الكفاءات والمهارات التونسية – التي تمثّل صفوة النخبة الأكاديمية والعلمية الوطنية – نحو أوروبا وأمريكا وكندا ودول الخليج أصبحت ظاهرة

---

[1] أنجزت هذه الورقة العلمية تحت اشراف الاستاذة راضية مشكان في اطار ورشة كتابة نظمتها جمعية «تونس الفتاة» بالشراكة مع منظمة كونراد اديناور خلال شهري جويليه وسبتمبر 2019.

[2] باحث بمعهد المناطق القاحلة بمدنين ورئيس جمعية «التنمية والدراسات الاستراتيجية» بمدنين.

[3] مثل القطاع الطبي والشبه طبي والاساتذة الجامعيين. انظر :

– Mohamed Kriaa et alii, *Systèmes d'information sur le marché de l'emploi et information sur la migration de travail en Tunisie. Migration de travail en Tunisie : une lecture de la décennie 2002–2012*, publié par l'Organisation Internationale pour les migrations 2011, bureau de Tunisie, 2013, http://ote.nat.tn/wp-content/uploads/2018/09/information__sur__la__migration__de__travail__en__tunisie1OUV1-1.pdf

– Kaies Samet, «La fuite des cerveaux en Tunisie», Hommes & migrations [En ligne]، 1307 | 2014, mis en ligne le 01 juillet 2017. URL : *http://journals.openedition.org/* hommesmigrations/2891 ; DOI : 10.4000/hommesmigrations.2891.

[4] موقع رئاسة الجمهورية التونسية http://www.carthage.tn

أخذت في التنامي خلال السنوات الأخيرة مما يجعلنا نتساءل عن مصير البلاد إذا تواصل نزيف هجرة الكفاءات، وهل ستصبح تونس مستقبلا بلا كفاءات ؟

حسب الأرقام الرسمية فإنّ تونس شهدت هجرة حوالي 85 ألف كفاءة إلى الخارج منذ سنة 2011 الى غاية سنة 2018، ويتوزعون على النحو التالي 2300 أستاذ باحث ومثلهم مهندسون إضافة الى 1000 طبيب وصيدلي و450 تقنيا والبقية من اختصاصات أخرى.[5] ويشهد القطاع الصحي خصوصا ومنذ سنوات نقصا في الكفاءات بفعل هجرة العديد منها خاصة إلى دول الخليج العربي.

سنحاول في هذه الورقة العلمية تقديم تشخيص لحالة واقعية تعتبر كفاءة في قطاع الصحة، هاجرت عن طريق التعاون الفني إلى الخليج وتحديدا دولة قطر بحثا عن تحسين حالتها المادية وهروبا من الوضع المهني والضغوطات المتعددة التي تعرضت لها. ويبقى الهدف من هذه الورقة هو إبراز الأسباب الموضوعية التي أدت إلى هجرة المبحوث إلى قطر عن طريق دراسة الاختلاف الملحوظ في الحياة العملية بين ما هو موجود في تونس وما هو موجود في دولة الهجرة. والأكيد هنا أنه يجب التمحّص في تأثير هذه الظروف بصفة مباشرة وغير مباشرة في الإطار الطبي و شبه الطبي مما ينتج عنه رغبة العديد منهم في الهجرة الخارجية أو التوجه نحو القطاع الخاص. وفي هذا الإطار نتساءل عن دور الظروف المهنية غير الملائمة في المؤسسات الطبية العمومية في المساعدة على التفكير في الهجرة ؟ وهل أن الجانب المادي هو السبب الوحيد للهجرة ؟ وهل يعتبر نقص التجهيزات الطبية سببا لتغيير الأجواء واللجوء الى الهجرة ؟ للإجابة عن هذه الاسئلة قمنا بإجراء مقابلة تفهمية بالسكايب[6] تم خلالها طرح مجموعة من الاسئلة المعمقة والدقيقة والنوعية على مهاجر تونسيّ اختار الهجرة حل للوضعيات الصعبة التي عاشها في تونس، هذه الاسئلة شملت كل المجالات مثل الحياة الشخصية والمحيط الأسري والأجواء المتعلقة بمكان الشغل.

[5] صحيفة الصباح التونسية، 29 اكتوبر 2018.

[6] نظرا لتواجده بدولة قطر.

1. شخصية مغامرة متحدية لوضعها ومناشدة للأفضل

خالد أصيل منطقة وذرف بولاية قابس، متزوج، يبلغ من العمر ثلاث وثلاثين سنة، من عائلة متوسطة، وأبواه لا يشتغلان، درس في مدرسة إبتدائية حكومية بمعهد ثانوي بقابس. وعندما تحصل على شهادة الباكالوريا أراد التوجه الى شعبة الرياضة ولكن لم يحالفه الحظ فاختار علوم التمريض في جامعة قابس حيث درس لمدة ثلاث سنوات. إثر التخرج اشتغل واكتسب خبرة في القطاع الخاص مدة سنة بأجر زهيد لا يمكن أن يغطى جميع مصاريفه اليومية فقرر إجراء تكوين في اختصاص "فصيلة الدم" ثم قدم مطلب شغل جديد بهذه الشهادة المختصة في تصفية الدم. واشتغل في هذا الاختصاص لمدة ثلاث سنوات في القطاع الخاص أيضا ولكن بأجر مغر مقارنة بالأجر الأول فتحسنت ظروفه نوعا ما. ومع مرور الوقت أحس أن توقيت العمل أكثر بكثير من قيمة الأجر وأن المشغل يقوم باستغلاله دون أن ينال حقوقه. فقرر خالد تغيير مكان الشغل واتجه الى قمرت بالضاحية الشمالية للعاصمة حيث اشتغل لمدة سنتين في نفس الاختصاص بمصحة خاصة بأجر مقبول الى أن تم انتدابه من قبل وزارة الصحة في مستشفى بمنطقة منزل حبيب من ولاية قابس. وبعد الزواج، ولعدة ظروف وأسباب ارتبطت اساسا بضعف الدخل زامنتها مشاكل نفسية متصلة بظروف العمل بقابس طفت فكرة الهجرة على السطح خاصة وأنه كان ينشد ايضا بيئة مجتمعية تمكن من العمل المريح بشكل أفضل مما هو عليه بتونس.

وبشكل عام لاحظ خالد أيضا، أن العديد من أصدقائه هاجروا خلال سنوات ما بعد الثورة الى بلدان الخليج مثل السعودية وقطر وتحسنت وضعيتهم (16.84 بالمائة من الكفاءات التونسية مهاجرة الى بلدان عربية[7]) اذ تحولت الهجرة الى ثقافة مجتمع مترسخة في أذهان الشباب، وحتى الكهول، فالطلبة والأطباء والمهندسونً وأساتذة التعليم العالي غدوا يعيشون على وقع رحيل مبرمج، بعد أن فقدوا الأمل في قدرة السياسيين والطبقة الحاكمة على إخراج تونس من نفق أزمتها العويصة والتي نتج عنها تدهور مستوى المعيشة[8].

[7] الديوان الوطني للتونسين بالخارج (2019).

[8] جريدة الشروق التونسية، هجرة الكفاءات في جمهورية الثقافة مقال بتاريخ 31 اكتوبر 2018.

لذلك قرر خالد ايضا خوض المغامرة والهجرة. فقدم عدة ملفات إلى أن حالفه الحظ ونجح في محاورة في مارس 2017 لإنتداب ممرضين للطوارىء بقطر وكان الأجر المعروض في العقد الذي أمضاه أجرا مغريا جدّا وهو قرابة ثمانية أضعاف ما كان يتقاضاه بتونس. غير ان كل ماسلف ذكره لا يمنعنا من التساؤل عن السبب الرئيسي للهجرة.

2. العنف المتزايد في المستشفيات كدافع للهجرة

تعدّ ظاهرة العنف بأشكالها المختلفة ظاهرة متأصلة في معظم المجتمعات الإنسانية ومتجذرة فيها دون استثناء، مع بعض التفاوت والاختلاف في طبيعة السلوكيات المرتبطة بهذه الظاهرة واشكالها تبعا للنظم السياسية والثقافية وقيمة التماسك الاجتماعي في تلك المجتمعات. وقد أكد خالد أنه تعرض في تونس هو وزملائه الى العنف من قبل عدد من المرضى أو مرافقيهم أو عائلاتهم ودون رادع. فخلال ممارسته لعمله في تونس تعرّض إلى العديد من الاعتداءات اللفظية والمادية من طرف عائلات المرضى خاصة، كما أن هذه الظاهرة اضحت في تزايد خلال السنوات الأخيرة، فقرابة ألف اعتداء سنويا ضدّ أعوان الصحة يسجل بتونس[9]. ونتيجة لذلك لم يعد يشعر بالراحة والاطمئنان اثناء عمله وخاصة ليلا وتوترت حالته النفسية وأثّر ذلك حتى على محيطه الأسري. وأكد خالد أن ما

[9] صحيفة ليدرز العربية، «العنف في المستشفيات : قرابة ألف اعتداء سنويا ضدّ أعوان الصحة و400 قضية مرفوعة إلى المحاكم»، مقال بتاريخ 03 اكتوبر 2017 /https://ar.leaders.com.tn/article/2174-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%86%D9%81-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%AA%D8%B4%D9%81%D9%8A%D8%A7%D8%AA-%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%A8%D8%A9-%D8%A3%D9%84%D9%81-%D8%A7%D8%B9%D8%AA%D8%AF%D8%A7%D8%A1-%D8%B3%D9%86%D9%88%D9%8A%D8%A7-%D8%B6%D8%AF-%D8%A3%D8%B9%D9%88%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D -%B5%D8%AD%D8%A9-%D9%88400-%D9%82%D8%B6%D9%8A%D8%A9-%D9%85%D8%B1%D9%81%D9%88%D8%B9%D8%A9-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AD%D8%A7%D9%83%D9%85-%D9%81%D9%8A-%D8%B3%D9%86%D8%A9-2015-2016. انظر كذلك :

Salma Moalla، «A propos de la migration des médecins tunisiens à l'étranger»، in Leaders، 19 février 2018، https://www.leaders.com.tn/article/24102-salma-moalla-a-propos-de-la-migration-des-medecins-tunisiens-a-l-etranger.

نشاهده من مظاهر عنف يدعو كل عناصر المجتمع الى البحث عن أسبابه. فهل هو وليد اللحظة أم أنه فطري وغريزي في طبيعة الكائن البشري وسلوكه ؟ أم يتولد وينفجر في لحظة ما لضغوطات ودوافع لدى الفرد ؟ هل أنّ هذا العنف لابد منه لتلبية رغبة كامنة في نفسية من يمارسه ؟

إنّ مايهم أكثر هو نوع العنف الممارس في المستشفيات ولماذا ازدادت هذه الظاهرة بعد الثورة ؟ وهل من دوافع جعلت العنف لابد منه للحصول على حق في العلاج أو للانتقام من الطبيب أو الممرض عند رفض تقديم العلاج أو تأخيره أو التسبب في موت المريض ؟. ويبقى المشكل الاهم في هذه الظاهرة هو عدم تفاعل أصحاب القرار وتدخلهم لحماية الإطارات الطبية وشبه الطبية من الاعتداءات المتكررة، رغم مطالبتهم ونقاباتهم بالتدخل اكثر من مرة[10].

ويرى خالد أنّ تدني الخدمات الصحية المقدمة في هذه المؤسسات وعدم رضا المواطنين عنها من اهم اسباب تفاقم ظاهرة الاعتداء على اطباء المستشفيات العمومية وممرضيها، ذلك بالإضافة إلى نقص الإطار البشري ونقص تأهيل أعوان الاستقبال وتكوينهم في حسن التواصل مع المرضى ومرافقيهم وكيفية التعامل معهم وخاصة اذا كانت حالات المرضى حرجة، زد على ذلك غياب تأمين نقاط حماية أمنية ثابتة امام مداخل المستشفيات وعدم التشدد في محاسبة المعتدين على الاطار الطبي وشبه الطبي وإحالتهم على القضاء.

وقد ذكر خالد أنّ أحداث العنف تتكرّر بصفة دورية خاصة في قسم الاستعجالي الذي يعيش فيه ممرضوه وأطباؤه ضغطا كبيرا نظرا لنقص المعدّات والإطار الطبي وشبه الطبي فيه، كما أن عديد الحالات التي تتمّ معالجتها في هذا القسم ليست من اختصاصه. مما يجعل المرافقين للمريض يعمدون الى الاعتداء بالضرب أو الشتم للتعبير عن الرفض الكامن في دواخلهم لفقدهم لعزيز عليهم مثلا.

وتختلف انواع العنف التي عاينها خالد بين العنف اللفظي ضد الكوادر الطبية من طرف الزوار وعائلات المرضى، و العنف المادي المتمثّل في تهشيم

[10] Donia Remili، Violences et souffrances en milieu hospitalier : le cas des infirmiers du gouvernorat de Tunis، 2019، https://tel.archives-ouvertes.fr/tel-02145980/document.

الممتلكات الخاصّة للكوادر الطبية مثل سياراتهم أو الممتلكات العامة والتجهيزات في المستشفيات، اضافة الى العنف المسلط من قبل المريض نفسه على الاطار الطبي خاصة في أقسام الاستعجالي. وتختلف انواع العنف من مستشفى إلى آخر ذلك انها تتأثر ببعض المعطيات فمثلا نقص الممرضين أو الأطباء من شأنه أن ينشأ عنه حالة ضغط عليهم مما يتسبب لهم في حالة توتر نفسي تؤدي إلى الفشل وبالتالي الهروب نحو الاستقالة أو تغيير مكان العمل الذي يتواجد فيه ضغط كبير كقسم الاستعجالي مثلا الى مصالح أخرى تقل فيها الضغوطات ممّا يؤدّي إلى شغور المنصب. كما أن نقص الأجهزة الطبية المهمة او تعطّلها أو نقص مواد التحاليل الطبية يجعل المرضى يتذمرون من هذا العجز ويتحول صبرهم إلى عنف احتجاجا منهم على مطالبتهم بمصاريف باهظة للعلاج في الوقت الذي لا يحتوي فيه المستشفى على أقل الإمكانيات الطبية وأبسطها.

إنّ النسبة الاكبر من العنف متاتية من مرافقي المرضى ولعل ذلك متأت من شخصياتهم العدوانية أومن كونهم يتعاطون بعض الادوية وحتى المشروبات الكحولية التي تؤثر على سلوكهم في تلك اللحظة واثناء تواجدهم بالمستشفى، والملاحظ أن هذا العنف غالبا ما يتزامن مع فترة الليل.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه قد يتأتى العنف احيانا اخرى من سوء استقبال المريض ومرافقيه إذ يتذرع عون الاستقبال بكثرة عدد المرضى ليتفاجأ المريض بإلغاء موعده مع الطبيب وهنا تثور ثائرة المريض أو مرافقيه، خاصة اذا كان قادما من منطقة بعيدة وبعد ان قطع كيلومترات عديدة ليفحصه الطبيب أو لتجرى له عملية جراحية ثم يفاجا بتاجيل موعده.

وعلى العكس مما يحصل في تونس فإن الوضعية في قطر مختلفة حيث يعاقب مباشرة كل معتد على موظف عمومي وخاصة الإطار الطبي و شبه الطبي بـ 10 سنوات سجنا مع غرامة مالية تصل إلى 10 ألاف ريال وهو الامر الذي دفع بخالد إلى العمل في هذا البلد بكل راحة نفسية واطمئنان. إذن ما يمكن استنتاجه هو أن العنف في المستشفيات يساهم بصفة مباشرة في هجرة الكفاءات، ولكن هل تساهم البنية التحتية المتوفرة في التفكير في الهجرة كذلك ؟

3. انعدام التجهيزات الطبية ونقصها أحد القوى الدافعة للهجرة

نصّ الفصل 38 من الدّستور على أنّ «الدّولة توفّر الوسائل اللاّزمة لضمان سلامة وجودة الخدمات الصحيّة»[11]، ورغم ذلك فإن سلامة الخدمات وجودتها مازالت متواضعة وذلك لوجود عديد النقائص. فالمواطن، حسب خالد، مازال يشتكي في تونس من الخدمات المتعلقة بالاستقبال واحترام الذات والخصوصيات وتوفير المعلومات اللازمة والمعطيات الملائمة للحصول على النجاعة الكافية التي يرنو إليها زائر المستشفى. وعلاوة على ذلك فإنّ ما لاحظه خالد على بعض المرضى المقيمين أظهر نسبة مرتفعة من الإصابة بالتعفّنات الاستشفائية ممّا يعكس الضّعف الصّارخ للآليّات الموضوعة لضمان سلامة المرضى. ويعتبر خالد أن التوزع الجغرافي للمؤسسات الصحية بالبلاد التونسية غير عادل إلى حد ما. ولكن يبقى العائق الكبير هو عدم المساواة في الخدمات الصحية المقدمة من قبل المؤسسات المعنية. حيث أن عديد المواطنين يشتكون من عدم توفر المرافق الصحية القريبة من مكان إقامتهم، وإن توفر هذا المرفق فانه لا يتكفّل بتلبية حاجياتهم ولا يلائم تطلعاتهم. وسبب ذلك هو أن ما يعادل نصف المراكز الصحية الأساسية لا تقدّم إلاّ حصّة واحدة في الأسبوع للعيادات الطبيّة وأنّ أغلب المستشفيات المحليّة لا تتوفّر فيها المعدّات والتجهيزات الطبيّة الملائمة كما انّ المستشفيات الجهويّة تشكو من نقص فادح في الاطبّاء المختصّين. هذا إضافة الى ما تتعرض له المؤسسات الصحية والاستشفائية من تجاوزات سببها ممارسات متعلقة بالطب الخاص في غياب الضوابط الإدارية والرقابية. ثم ان هذا القطاع الطبي والصحي الخاص يتركز أساسا في المدن الكبرى وفي المناطق السّاحليّة للبلاد ويعرف فيها نموّا سريعا ومتواصلا. وقد أكد خالد أنّ هذه النقطة بالذات اكبر دليل على غياب العدل في بعث المؤسسات الصحية الخاصة والعمومية مما أدى إلى عدم التكامل بين الخدمات المقدمة في القطاعين العام والخاص وهو ما يضر بحسن سير النظام الصحي.

وفي العموم، تمثل الخريطة الصحية الضامن الاول للمساواة الصحية والحافظ لجودتها والمحدّد لمستقبل هذا القطاع الذي يبقى قلب الدولة وعمادها.

[11] الفصل 38 من دستور الجمهورية التونسية سنة 2014، http://www.legislation.tn/

لذا يجب إعطاء أولويّة لاعتماد أسلوب الخارطة الصحيّة الوطنيّة العادلة والشاملة لكلّ القطاعات والقيام بالإجراءات الضرورية لضمان جودة الخدمات. ويعيش قطاع الصحة حسب خالد في تونس نقائص كبيرة ولا يشجع على العمل المريح ، فنقص الأجهزة والمعدات اللازمة للعملية الطبية كأجهزة السكانار والأشعة والتي يحتاجها المريض بشكل يومي أثناء قدومه للعلاج ونقص الطاقم الطبي و شبه الطبي وطب الإختصاص من أهمّ الاشكاليات التي تتسبب في تاخير العلاج وفي الفوضى العارمة التي تعم المستشفيات إذ كثيرا ما يفوق عدد المرضى طاقة استيعاب المستشفى ومعداته الموجودة. كما يعاني المرضى داخل أروقة المستشفيات العمومية من طول الانتظار وبطء العلاج وتباعد المواعيد وسوء التنظيم وتخلف الإدارة التي لم توفّر بعد الرقمنة التي من شأنها أن تسهل الخدمات، لذلك نجد يوميا طوابير من المنتظرين أمام مكاتب التسجيل وقاعات انتظار ممتلئة ومواعيد مؤجلة إلى أشهر. . . ويمثل نقص الأدوية الإشكال الأخطر على الإطلاق ، فرغم تخصيص نسب كبيرة من ميزانية وزارة الصحة لاقتناء الأدوية إلاّ أنّ المستشفيات والمراكز الصحية والمستوصفات مازالت تعاني من نقص في الأدوية، وحسب المتدخلين في القطاع تعود أسباب ذلك إلى غياب سياسة صحية جدية للدولة وسوء الاستخدام الرشيد للأدوية والفساد ونقص التمويل .

وهنا تجدر الإشارة الى نقص التكوين المستمر للأعوان في تونس فهذا التكوين من شانه ان يساهم في تعزيز المعارف المتعلقة مثلا بتشغيل التجهيزات ليتمكّن هؤلاء الأعوان من التّمتّع بترقيات مهنيّة.

ونتساءل هنا عن مدى مساهمة هذا الوضع المتردي في المستشفيات في اتخاذ قرار الهجرة ؟

4. برامج تعزيز القدرات كدافع للبقاء في المهجر

يرى خالد أنّ أحد أسباب الهجرة يتمثّل في المناخ العلمي المريح والمتطوّر الذي تتيحه بلدان الإقامة للأطباء والفنيين والباحثين بما توفره لهم من وسائل البحث وتحسين القدرات. وهذا الرّأي الذي يحمله خالد ناتج عمّا أخبره به بعض زملائه الذين خاضوا تجربة الهجرة. وأضاف خالد أنّ تونس لا وجود فيها لتكوين مستمر ولا لمخابر بحث تستقطب الباحثين برواتب مغرية وتوفّر لهم

مستوى عيش مناسب وحتّى إن وُجدت هذه المخابر فهي تفتقر إلى الإمكانيات المادية والأكاديمية التي تضمن بيئة علمية ملائمة تساهم في نجاح البحوث التي ينجزها هؤلاء.

واذا كان من الضروري اليوم العمل على ايقاف النزيف الذي سيؤدي الى تصحر الساحة الطبية من نخبها لتصبح مرتعا لغير الاكفاء فإنه يجب علينا اتخاذ إجراءات ناجعة مثل تغيير السياسات الوطنية في مجال الصحة والبحث العلمي والتكنولوجي لتصبح البيئة الوطنية جاذبة للكفاءات وبعث أقطاب للبحث العلمي والتّجديد التكنولوجي وتطويره ممّا يمكّن من فتح خطط جديدة و فسح المجال للإبداع الفردي او الجماعي كما يمكن تشجيع إحداث مصحات أجنبية كبرى في تونس مع المشاركة في تربّصات خارجية تنمّي المكتسبات العلمية للكفاءات شبه الطبية .

ويرى خالد انه لابد من ايلاء أهمية كبرى للانفتاح على التكنولوجيا وتطوير آليات العمل في اتجاه الرقمنة لمواكبة الطفرة الرقمية في العالم، ومتابعة التجديد الطبي، وتطوير المنظومة التشريعية، وتوفر الارادة لمراجعة جوهرية لمنظومة الصحة خاصة في القطاع العمومي، وتعزيز قوانين الشغل من اجل تعزيز مكانة العمل من خلال منح خصوصية. وذكر خالد انه يتلقّى اليوم في بلد المهجر تكوينا مستمرا في اللغات في ميدان عمله وهذا ما لم يتمتّع به في تونس.

وقد ساهم هذا التكوين في تحسين مردوديته التي انعكست بدورها على مرتبه وهو يرى ضرورة إعداد كراس شروط للمستشفيات العمومية يتضمن جملة من المعايير التقنية والقانونية والتدريبية الواجب توفرها في هذه المؤسسات وتخصيص اعتمادات مالية لانجازها، لانه ان تم توفير ذلك فان هذا الأمر قد يساهم في عودة بعض الكفاءات الى تونس.

5. تحسين الوضع الشخصي والمهني كأحد شروط العودة من المهجر

لا يرى خالد انه من المبالغة القول أن قرار الهجرة أو العودة إلى الوطن، من أصعب الخيارات التي يمكن أن يُقدم عليها المرء في لحظة حاسمة من حياته. وهو يعتقد أن الوضع المادي الصعب وضعف الأجور بتونس من أبرز أسباب

الهجرة، فمناخ العمل الذي توفّره بلدان الإقامة وخاصّة بلدان الخليج هو مناخ مريح ومتطوّر ييسّر عمل الأطباء والفنيين والباحثين ويوفّر لهم وسائل البحث وآليات تحسين القدرات والمنح المجزية، وهذا من شأنه أن يشجع على الهجرة إلى هذه البلدان إذ لا وجود اليوم في تونس لتكوين مستمر ولا لمخابر بحث تستقطب الباحثين برواتب مغرية وتوفّر لهم مستوى عيش مناسب وحتّى إن وُجدت هذه المخابر فهي تفتقر إلى الإمكانيات المادية والأكاديمية التي تضمن بيئة علمية ملائمة تساهم في نجاح البحوث التي يقوم بها هؤلاء.

ان أحد أهداف هجرة خالد هي الرّغبة في امتلاك منزل وسيارة،فهو إن اعتمد على مرتبه بتونس لن يتمكن من تحقيق هدفه لذلك ازدادت فكرة الهجرة ترسّخا في ذهنه. فالضائقة التي تواجهها المالية العمومية في تونس، والأجور المنخفضة مقابل تزايد كلفة المعيشة تعتبر عوامل مشجعة على الهجرة. فبالنسبة الى خالد لعبت الضغوط المادية من طرف عائلته تحديدا من ابيه وأمه العاطلين عن العمل عاملا مهما لهجرته بالاضافة الى متطلبات الزواج ومصاريف ما بعد الزواج حيث أن الظروف المادية الصعبة في تونس تجعل الفرد يفكر في موارد أخرى وتدفعه الى إيجاد حلول بديلة حتى يلبي حاجاته، والهجرة حل من بين هذه الحلول. ولكن الا يفكر خالد في العودة الى تونس بعد ما توفر له في قطر من امتيازات؟ هو سؤال تم توجيهه إليه وصعبت عليه الإجابة، فهو متأكد أن ظروف العمل أفضل في قطر إلاّ أنّه قرّر العودة الى تونس ولكنّ تنفيذ قرار العودة مرتبط بتحسّن ظروفه المادية والقدرة على اقتناء منزل وسيارة في وطنه. وهذا الأمر قد يتحقق، حسب تقديره، بعد ست سنوات من الهجرة . ويأمل هنا أن تتحسن ظروف العمل في تونس ويتم تطبيق القانون على المخالفين وأن يتحسن حال المستشفيات خاصة بالجهات الداخلية من ناحية البنية الأساسية ومن ناحية التجهيزات والعنصر البشري.

خاتمة

من خلال مقابلتنا مع خالد تأكد لنا أن الهجرة ليست فقط لتحسين الجانب المادي بل أيضا بسبب ظروف العمل في المستشفيات التي تعتبر عنصرا منفرا من العمل فيها، فحين تصبح سلامة الإطار الطبي و شبه الطبي مهددة تصبح الهجرة

أملا في الحصول على ظروف عمل أحسن. ومن خلال دراسة حالة تنتمي الى القطاع الصحي العمومي حاولنا ان نوضح أن تحسين الوضع المادي والهروب من الوضع الأمني والمهني السيء داخل المستشفيات يعتبر من أهم العوامل الدافعة للهجرة. وتشهد تونس اليوم ارتفاعا كبيرا في هجرة الكفاءات من الأطباء والاطارات شبه الطبية. فالآلاف منهم هجروا البلاد خلال السنوات الأخيرة لاكتساب خبرات جديدة ولكنهم يهاجرون غالبا بحثا عن ظروف عمل أفضل إضافة إلى الرواتب العالية. لكن تواصل نزيف الهجرة سيجعل تونس بلا كفاءات في عديد الاختصاصات وبالتالي سينهار الاقتصاد والتعليم والصحة والمجتمع بصفة عامة وسنكون بلا خبراء استراتيجيين ولا أطباء وممرضين أكفاء، وهو أمر في غاية الخطورة وعلى الدولة أن تنتبه الى هذه المعضلة وان تسعى بشتى الطرق إلى إيجاد حلول عملية للحفاظ على ثروتها البشرية. إنّ الهدف من هذه الورقة هو المساهمة في لفت الانتباه لخطورة الوضعية الحالية للصحة بتونس. ورغم ان البعض يرى انّ تعويض الخسارة البشرية، جزئيا ، قد يكون من خلال التحويلات النقدية للمهاجرين ونقل التكنولوجيا العائدة من خلالهم، إلا أن هذه الآراء لا تعي أن هذه الهجرة ستظطرنا إلى استيراد الخبراء الأجانب بعقود باهظة بدلا من أبنائنا المؤهلين الذين لم يجدوا لهم مستقرا فيها، حتى إن بعض المسؤولين ما فتئوا يشجعون الشباب الحامل للشهادات العليا على الهجرة والبحث عن عمل في الخارج، كي لا تتعبهم مطالبه.

تدق عديد المنظمات[12] اليوم ناقوس الخطر فهجرة الكفاءات لها انعكاساتها وتداعياتها على المستقبل القريب والبعيد للدولة لانها تفشل في الاستفادة من خبرات العقول المهاجرة ومشاركتها في جهود التنمية وإصلاح المؤسسات، خاصة وأن الاجراءات الإدارية في تونس تتسم بالتشعب وتعقيدات الإجراءات الإدارية وغياب التشجيع. وآفاق الاستثمار وبعث المشاريع، كل هذه العوامل وغيرها تشجّع على هجرة الأدمغة في وقت تحتاج فيه تونس اقتصاديا واجتماعيا إلى كفاءاتها في مختلف المجالات. وهذا الأمر يحتّم اتخاذ قرارات جريئة وإعداد برامج خصوصية لإيجاد الحلول الجدية لظاهرة هجرة الكفاءات.

[12] مثل الاتحاد العام التونسي للشغل وعمادة الأطباء والمنتدى التونسي للحقوق الاجتماعية.

المراجع

القابسي محمد أحمد، "هجرة الكفاءات في جمهورية الثقافة"، جريدة الشروق التونسية، مقال بتاريخ 31 أكتوبر 2018. http://www.alchourouk.com/article/%D9%85%D9%82%D8%AF%D9%85%D8%A7%D8%AA-%D9%84%D9%84%D9%85%D8%B7%D8%B1%D9%87%D8%AC%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%81%D8%A7%D8%A1%D8%A7%D8%AA-%D9%81%D9%8A-%C2%AB%D8%AC%D9%85%D9%87%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D8%A9%C2%BB.

صحيفة ليدرز العربية. «العنف في المستشفيات : قرابة ألف اعتداء سنويا ضدّ أعوان الصحة و400 قضية مرفوعة إلى المحاكم»، مقال بتاريخ 03 اكتوبر 2017 /https://ar.leaders.com.tn/article/2174-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%86%D9%81-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%AA%D8%B4%D9%81%D9%8A%D8%A7%D8%AA-%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%A8%D8%A9-%D8%A3%D9%84%D9%81-%D8%A7%D8%B9%D8%AA%D8%AF%D8%A7%D8%A1-%D8%B3%D9%86%D9%88%D9%8A%D8%A7-%D8%B6%D8%AF-%D8%A3%D8%B9%D9%88%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D8%AD%D8%A9-%D9%88400-%D9%82%D8%B6%D9%8A%D8%A9-%D9%85%D8%B1%D9%81%D9%88%D8%B9%D8%A9-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AD%D8%A7%D9%83%D9%85-%D9%81%D9%8A-%D8%B3%D9%86%D8%A9-2015-2016.

Kriaa Mohamed et *DOL 6\ WP HV GLQRUP DWRQ VXU OH P DUFK de lêemploi et information sur la migration de travail en Tunisie. 0 LJUDWRQ GH WDYDLOHQ 7XQLVLH XQH OHFWXUH GHOD GHQQLH 2012* SXEOL SDUG2 UDQLDWRQ,QWHUQDWLRQDOH SRXUOHV P LJUDWRQV 2011, bureau de Tunisie, 2013, http://ote.nat.tn/wp-content/uploads/2018/09/information_sur_la_migration_de_travail_en_tunisie1OUV1-1.pdf.

0 RIOD 6DOP D d $ SURSRVGHOD P LJUDWRQGHV P GHFLQVXQLHQV - Ø WDQJHU, in *Leaders* I YULHU KWWV ZZZOHDGHUV com.tn/article/24102-salma-moalla-a-propos-de-la-migration-des-medecins-tunisiens-a-l-etranger.

Remili Donia, *Violences et souffrances en milieu hospitalier : le cas des infirmiers du gouvernorat de Tunis*, 2019, https://tel.archives-ouvertes.fr/tel-02145980/document.

Samet Kaies, â La fuite des cerveaux en Tunisie□, *+RP P HV migrations* ≺ QDQH@ _ P LVHQDQHOH MXLOOHW URL : http://journals.openedition.org/ hommesmigrations/2891 ; DOI : 10.4000/hommesmigrations.2891.

جمعيّة تونس الفتاة

تونس الفتاة هو إسم أطلق على حركة وطنية في أوائل القرن العشرين، عرفت كذلك بإسم حركة الشباب التونسي، وكان من زعمائها عبد العزيز الثعالبي وعلي باش حانبة وغيرهم.

تأسست الجمعية يوم 5 ماي 2012، وهي ذات أبعاد ثقافية وتربوية.

أهداف الجمعيّة

- تحفيز الشباب على المشاركة الفعالة في الحياة العامة وعلى كافة أشكال الإبداع.
- الدعوة إلى مجتمع تعدّدي يقبل بمختلف الآراء شرط أن لا تدعو إلى العنف.
- الدعوة إلى قيم المواطنة والحداثة مع التمسّك بالهويّة العربية الإسلاميّة.

الهاتف : 732 528 58 (216+)
الموقع : www.tounesaf.org
البريد الالكتروني : taf@tounesaf.org
الصفحة على فايسبوك : www.facebook.com/tounesalfatet
الصفحة على تويتر : www.twitter.com/tounesalfatet